

القسم الأول  
الحياة العباسية  
نموها، تطورها، ازدهار الأدب فيها

obeikandi.com

## المبحث الأول

### مشكلة التقسيم للعصر العباسي

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ - ١٢٥٨ م)

#### أولاً: التقسيم السياسي

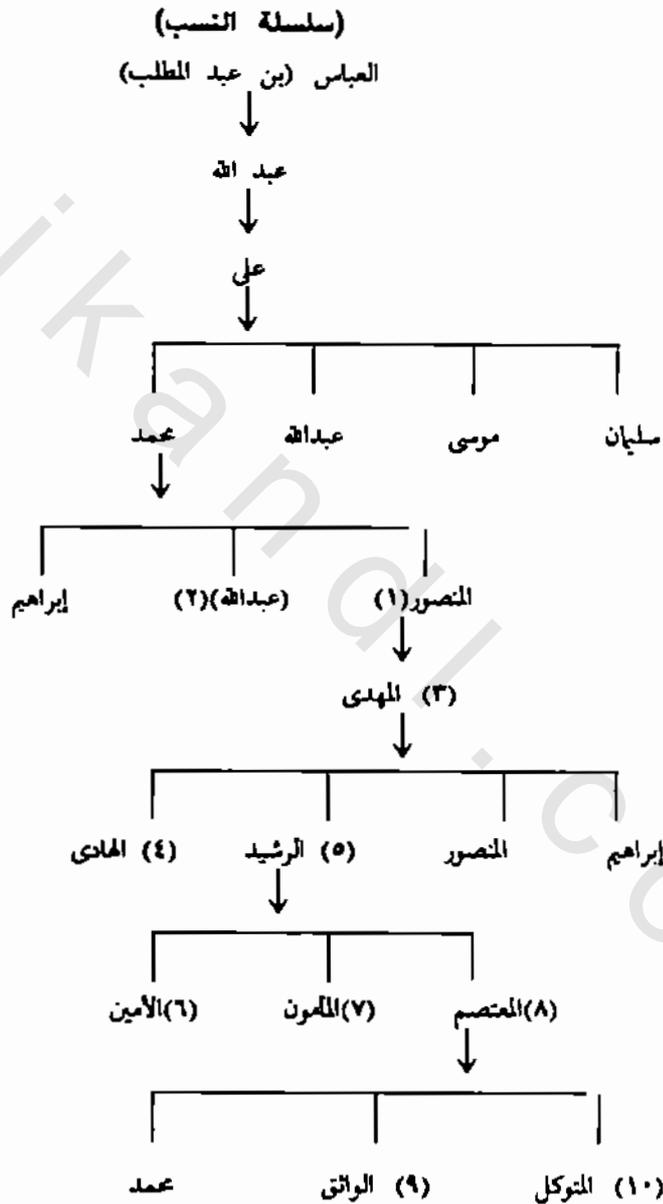
واضح لمن يرصد الفترة التاريخية لهذا العصر أنها فترة طويلة تروى على خمسة قرون بحوالى ربع قرن (٥٢٤ عامًا هجريًا) ونظراً للأحداث المتعددة وألوان الحكم المتباينة التي قامت في هذه المدة الطويلة فإن المؤرخين يقسمون هذا العصر إلى عصور أو فترات تاريخية مختلفة لكل فترة طابعها وأحداثها التي تميزها، ومن طبيعة الفروق المختلفة بين هذه الفترات سوف نجد لكل فترة ملامح ومؤثرات تتميز بها حياة اللغة العربية وتراثها الأدبي والفكري:

#### العصر العباسي الأول: (١٣٢ - ٢٣٢ هـ).

ويسمى بالعصر العربي لأن حقيقة السلطة فيه كانت في يد الخلفاء العرب؛ إذ ما كان يُعقل أن يغفل الخلفاء عن متابعة عيالهم ووزرائهم عند بدء تكوين الدولة وقيامها، ولا سيما العلويون يترصون بهم وينقمون عليهم أنهم انتزعوا بل سرقوا الخلافة منهم. وخلفاء هذا العصر على التوالي هم:

- ١ - السفاح : (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م)
- ٢ - المنصور : (١٣٦ هـ - ٧٥٤ م)
- ٣ - المهدي : (١٥٨ هـ - ٧٧٥ م)
- ٤ - الهادي : (١٦٩ هـ - ٧٨٥ م)
- ٥ - الرشيد : (١٧٠ هـ - ٧٨٦ م)
- ٦ - الأمين : (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م)

- ٧ - المأمون : (١٩٨ هـ - ٨١٣ م)  
 ٨ - المعتصم : (٢١٨ هـ - ٨٣٣ م)  
 ٩ - الواثق : (٢٢٧ هـ - ٨٤٢ م)



## العصر الثاني : ( ٢٢٢ - ٣٣٤ هـ ).

ويسمى بعصر التفوذ التركي؛ لأنه في هذا العصر انتقل السلطان من يد الخلفاء إلى يد جنودهم من الأتراك، وهذا العصر يشمل الخلفاء الآتية أسماؤهم :

- ١ - المتوكل على الله : ( ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ )
- ٢ - المستنصر بالله : ( ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ )
- ٣ - المستعين بالله : ( ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ )
- ٤ - المعتز : ( ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ )
- ٥ - المهتدى : ( ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ )
- ٦ - المعتمد على الله : ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ )
- ٧ - المعتضد بالله : ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ )
- ٨ - المكتفي : ( ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ )
- ٩ - المقتدر : ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ )
- ١٠ - القاهر بالله : ( ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ )
- ١١ - الراضى : ( ٣٢٢ هـ )
- ١٢ - المتق : ( ٣٢٩ هـ )
- ١٣ - المستكنى : ( ٣٣٣ هـ )
- ١٤ - المطيع : ( ٣٣٤ هـ - بداية بنى بويه )
- ١٥ - الطائع : ( ٣٦٣ هـ )
- ١٦ - القادر : ( ٣٨١ هـ )
- ١٧ - القائم : ( ٤٢٢ هـ )
- ١٨ - المقتدى : ( ٤٦٧ هـ )

وفي أواخر هذه الفترة وجدت فترة تسمى بعصر إمرة الأمراء؛ حيث ضعف نفوذ الخلفاء إلى حد بعيد، وأصبحوا يسلمون مقاليد الحكم إلى نفر من رجال الجيش الأقوياء، ويلقبون الواحد منهم بلقب (أمير الأمراء) كما فعل الخليفة الراضي مع (ابن رائق) الذي كان يلى شئون البصرة، حيث سلمه مقاليد الأمور وأمر بأن يخطب له على المنابر، وأصبح الخليفة والوزير في الدولة كمقاعد الزينة التي تظهر في المناسبات إذا اقتضت الحاجة ذلك، وظل الأمر في يد إمرة الأمراء من ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ.

### العصر الثالث: (٣٣٤-٤٤٧هـ).

ويسمى بعصر بني بوية، حيث استولى هؤلاء على بغداد، ويقال له أيضاً العصر الفارسي، لأن ملوك هذه الأسرة الذين ظهرت عظمتهم على سبيل المفاجأة مرة واحدة أصلهم فارسي؛ إذ يقال إنهم ينسبون إلى (بهرام جور) أحد ملوك آل ساسان، ويقال أيضاً إنهم من دهماء الفرس.

### العصر الرابع: (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ)

ويبدأ هذا العصر باستيلاء السلاجقة على بغداد، وينتهي بسقوط دولتهم على يد زعيم المغول «هولاكو» حيث استولى بجيوشه على بغداد وقتل المستعصم آخر خلفاء بني العباس وبذلك سقط نجم الخلافة العباسية والنفوذ السلجوقي معاً<sup>(١)</sup>.

وهناك تقسيم تاريخي أو سياسي آخر ذهب إليه أستاذنا الدكتور شوقي ضيف حيث يرى أن العصر العباسي يضم عشرين هما العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) والعصر العباسي الثاني (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) وأخرج كل منها كتاباً مستقلاً ثم جعل الفترة التالية لذلك «عصر الدول والامارات» وهو يبدأ من نهاية العصر العباسي الثاني ويمتد إلى نهاية العصور الوسطى وبداية

(١) راجع تاريخ الإسلام د: حس إبراهيم: ج٢، ٣. وراجع الطبرى الجزء التاسع وما بعده (خلافة أبي العباس ١٣٢ هـ) طاول الحسينية بمصر. وانظر مقنعة تاريخ الشعر العربي ج٢ - د. عماد عبد العزيز الكفراوي.

العصر الحديث، وذلك لأن بغداد لم تعد منذ استيلاء البويهيين عليها إلا مجرد رمز لخلافة إسمية، وأما الخلافة العباسية فقد انتهت بنهاية العصر الثاني (٣٣٤ هـ).

وهذا التقسيم له مبرراته التاريخية والفنية التي تؤيده وتنهض به، ولكنه في الأساس لا يغير مجرى التقسيم التاريخي بل يتجه إلى معالجته بأسلوب تاريخي يعتمد على الواقع التاريخي، لأنه حيث بدأ عصر الدول والإمارات لا يصح أن نستمر في تقسيم العصر العباسي لأن الباقي منه هو اسم الخلافة العباسية فقط<sup>(١)</sup>.

### أبرز الملامح التي تميز هذه العصور

يرى المؤرخون أن الفترة التي بدأت بقيام الدولة العباسية إلى استيلاء بني بويه على بغداد (١٣٢ - ٣٣٤) هي الفترة التي ازدهرت فيها الحياة الأدبية واللغوية والفكرية على نحو واسع النطاق حيث احتق الخلفاء والولاة بالشعراء والأدباء والعلماء وأغدقوا عليهم العطايا، وأنفقوا على نقل العلوم والمعارف نفقات هائلة، وفي عهده الرشيد والمأمون كان يُعطى المترجم وزن الكتاب ذهباً وبذلك قامت حركة ترجمة واسعة نقل خلالها كثير من العلوم والمعارف التي كانت تذخر بها الثقافات والحضارات الأخرى.

وقد وُضعت المادة العلمية الواقعة في كثير من الأحيان في مختبر الفكر الإسلامي فاستفاد بها هذا الفكر واستثمرها، وتشكلت هي الأخرى بطواعيه، وتغذت بزاده، ورويت من مشاريعه، وفتحا معاً طريقاً جديدة في حضارة الإنسان، تلك الطريق التي شكلت المنطق الأساسي للحضارة الإنسانية في أواخرها التالية. وفي ضوء التقسيم السياسي وهو التقسيم الأكثر شيوعاً في الدرس

(١) يلاحظ أنني أغفلت تقسيم الأستاذ جرجي زيدان لأنه تقسيم تاريخي سياسي ولا يقدم حديثاً بل عليه ملاحظات أبرزها: الغموض والإبهام عند كلامه عن العصر الثاني. انظر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان ١٠/٢ ط دار الهلال مراجعة وتعليق د. شوق ضيف.

الأدب يمكن القول بأنه ابتداءً من العصر العباسي الأول سنة ١٣٢ هـ إلى ظهور البويهيين سنة ٣٣٤ هـ كانت الحياة الأدبية واللغوية تأخذ حظها من النرق والكمال على تفاوت في الدرجة، ولكن المائة سنة الأولى (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) هي العصر المزدهم بجمرة الانطلاق والتجديد المقعم بالحياة المختصة المواراة بالنهضة الأدبية واللغوية والفكرية، وظلت قوة الدفع تباشر فعلها في حب السلم وطلب المعرفة وتقدير الأدب والحفاوة بالكلمة والفكرة طوال العصر العباسي الثاني أى المائة التالية للمائة الأولى وهي الفترة التي شغل فيها الخلفاء بمشاكل الحكم حيث تسلط الأتراك على السلطة.

أما فترة الحكم البويهى أو الفارسي (٣٣٤ - ٤٤٧) وهي أكثر من مائة عام فقد كان فيها أيضاً أدياءً كبار منهم أبو العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) والشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) وفي مدة حكم البويهيين ظهرت الكعب الوافية في علوم اللغة والتاريخ والأدب والطب والفلسفة، فإذا كان العصر السابق عليهم بشقيه العربى والتركى هو عصر البلاغة الأدبية ورقى الشعر والكتابة الفنية فإن عصر البويهيين كان عصر النشاط للتأليف العلمى (فهو عصر الموسوعات) وقد عاصرت الدولة البويهية دول أخرى منها: الدولة السامانية بتركستان (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) والدولة الزيارية بسطيرستان (٣١٦ - ٤٣٤ هـ) وعاصرت الدول التركية: الإخشيدية بمصر (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) والغزنوية بأفغانستان والهند من (٢٩٢ - ٣٨٠ هـ) وعاصرت أيضاً دولاً عربية كالفاطمية بمصر (٣٥٧ - ٥٦٧ هـ) والحمدانية بالشلم من (٣١٧ - ٣٩٤ هـ).

وقد تنافست هذه الدول في إكرام العلماء وتشجيعهم على التأليف وعظم شأن المكتبات الذاخرة بمئات الألوف من الكتب، فكتبة العزيز الفاطمى كانت تضم ألف ألف كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والفلك والروحانيات، ومثلها مكتبة الحاكم بأمر الله، وفي بغداد كان وزيرها بهاء الدولة بن بويه قد جعل في مكتبته أكثر من عشرة آلاف مجلد مخطوط بخطوط الأئمة وقد احترقت عند دخول السلاجقة.<sup>(١)</sup>

(١) انظر الأدب العربى وتاريخه عمود مصطقى ١٧/٢ - ١٨ ط ٢.

وأما الفترة التي تنسب إلى السلاجقة من تاريخ استيلائهم على بغداد (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) فالمعروف أن السلاجقة كانوا خليطاً من فرسان الترك والفرس وقد أسلم الجد الأكبر لهذه الأسرة وهو سلجوق الكبير لأنه رأى أنه لن يتمكن من بلاد الإسلام إلا إذا كان على دينهم والمعروف أن الدولة البويهية كانت شيعية المذهب وكذلك الفاطمية بمصر، أما في عهد السلاجقة فانتعش الاتجاه السني، ويتميز هذا العهد بانتشار المدارس العلمية الكبرى في العالم الإسلامي وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد وكان التعليم فيها بالحنان، وفُرض لطلابها أرزاق تجرى عليهم، وكان من أساتذتها أبو إسحق الشيرازي وحجة الإسلام الإمام الغزالي وأبو زكريا التبريزي وغيرهم من جلة العلماء المشهورين، ومن طلابها عماد الدين الأصفهاني وكمال الدين الأنباري الذي صار أستاذاً بها.

وكذلك بنو نور الدين زنكي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ مجموعة من المدارس في دمشق وحلب وحماه وغيرها من البلاد، وبني السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ المدارس في مصر والإسكندرية، وبروى ابن جبير أنه رأى في رحلته حوالي عشرين مدرسة في دمشق وثلاثين في بغداد.

كذلك يمتاز هذا العصر بأنه عصر الموسوعات العلمية الجامعة وعصر التلخيص والتجميع، ولدينا من كتب هذا العصر على سبيل المثال معجم البلدان لياقوت الحموي، وكذلك معجم الأدباء ولكن الكتاب لم يعثر على جميع أجزائه وقد طبع منه حالياً ستة أجزاء. ومن الكتب أيضاً شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ووفيات الأعيان لابن خلكان وغير ذلك من الكتب<sup>(١)</sup>.

تلك هي الملامح العامة للفترات التاريخية المختلفة التي مرت بها مراحل الحكم في العصر العباسي الذي امتد أكثر من خمسمائة عام.

(١) انظر، الأدب العربي وتاريخه عمود مصطفى ص ١٨/٢ - ٢٠ ط ٢ وراجع الموضوع بتوسع في ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٢ (الفصل الثاني: معاهد العلم في العصر العباسي) ص ٤٩ ط ٢.

## ثانياً: التقسيم الأدبي

هناك تقسيات أخرى للعصر العباسي تقوم على الفهم الأدبي وليس السياسي.

التقسيم الأول منها هو ما ذهب إليه الأستاذ حنا الفاخوري<sup>(١)</sup>، وهو يرى أن هذا العصر تنوعه أقسام ثلاثة على النحو التالي.

### القسم الأول:

أدب الثورة التجديدية ويبدأ ببيشار بن برد (٩٦ - ١٦٨ هـ) وينتهي بظهور أبي تمام، ومن أبرز أعلامه: أبو نواس (٤٥ - ١٩٨ هـ) وأبو العتاهية (١٣٠ - ٢١٠ هـ) ومسلم بن الوليد (١٣٠ - ٢٠٨ هـ) والعباس بن الأحنف (١٩٢ هـ) والحسين بن الضحاك (١٦٢ - ٢٥٠ هـ) ومن الكتاب عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ) وسهل ابن هارون (٢١٥ هـ).

### القسم الثاني:

أدب الحركة العاكسة، ويبدأ بظهور أبي تمام (١٨٠ - ٢٢٨ هـ) وينتهي بظهور المتنبي، ومن أبرز أعلامه: البحتري (٢٠٦ - ٢٨٤ هـ) وابن الرومي (٢٢١-٢٨٣ هـ) وابن المعتز (٢٤٩ - ٢٩٦ هـ) ومن الكتاب شيخهم الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥ هـ).

### القسم الثالث:

أدب الاستقرار والتدرج نحو الصنعة والزخرف ويبدأ بظهور المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ومن أبرز أعلامه أبو فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ)،

(١) راجع تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري ص ٣٥٩ - ٣٦٧ ط بيروت المطبعة البولسية.

والشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) وأبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ)، وينتهي بنهاية البهاء زهير (٥٨١ - ٦٥٦ هـ).

**التقسيم الثانى:** تقسم عدتت وجيلد، ومقتع إلى حد كبير، ذهب إليه أستاذنا الدكتور يوسف خليل<sup>(١)</sup> وهو يقوم على أساس أن ظواهر أدبية بعينها ميزت كلَّ منها قرنا من قرون العصر العباسى ابتداءً من القرن الثانى الهجرى الذى يمثل البداية الحقيقية فى التاريخ الأدبى لهذا العصر، وذلك حيث إن القصيدة العربية لم تبدأ رحلتها من الأموية إلى العباسية مع قيام الدولة العباسية... وإنما بدأت مع تحرك المجتمع العربى إلى مجتمع جديد فى مستهل هذا القرن<sup>(٢)</sup>، ويتم التقسيم على النحو التالى:

### أولاً: القرن الثانى:

شغل بقضية أدبية ضخمة، وهى قضية التجديد فى القصيدة العربية للخروج بها من إطار الكلاسيكية الجديدة التى شهدتها القصيدة الأموية إلى إطار جديد تكون فيه قادرة على التعبير عن المجتمع الجديد<sup>(٣)</sup>.

وقد شغل الشعراء الكبار بهذا الدور، واستطلع بشار (٩٦ - ١٦٧ هـ) وأبو نواس (١٤٥ - ١٩٨ هـ) وأبو العتاهية (١٣٠ - ٢١٣ هـ) «أن ينجحوا فى هذه المحاولة، وأن يُرسلوا تقاليد القصيدة العباسية الجديدة»<sup>(٤)</sup>.

### ثانياً: القرن الثالث:

وقد شغل بقضية أدبية كبرى «بدأت إرهاصاتهما فى القرن الثانى واستكملت مقوماتهما الفنية فى هذا القرن، وهى قضية الصراع بين القديم والجديد، أو - بعبارة أخرى - بين المحافظين من أصحاب عمود الشعر والمجددين من مدرسة

(١) راجع تاريخ الشعر العباسى ص ٤ - ٨ ط ١٩٨١.

(٢) السابق ص ٥.

(٣) السابق ص ٧.

(٤) السابق ص ٧.

البديع، وهي القضية التي مثلها قطبا الصراع المتنافران فنيا: أبو تمام... زعيم المجددين في هذا القرن، والبحترى زعيم المحافظين فيه، ورأس أصحاب عمود الشعر<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: القرن الرابع:

وهذا القرن هو عصر المنتهى غير منازع «فقد شغله شاعر العربية الأكبر بمحاولته الناجحة في التخلص من أثقال البديع وقيوده... ليعيد للقصيدة العربية روحها البدوي في غير انفصال عن روح العصر الجديد بما يحمله عن ثقافات عقلية، فحقق بهذا مزواجه عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطريتها وبين ثقافة عصره العقلية بقضاياها المعقدة»<sup>(٢)</sup>.

### رابعاً: القرن الخامس:

«وهو عصر أبي العلاء المعري دون منازع... آخر عمالقة الشعر العربي القديم الذي استطاع بعبقرته الفذة أن يرتفع بشعره إلى مستوى إنساني رفيع... عن طريق المزاجية النادرة بين الفن والفلسفة (مع) هذه القدرة الفذة على التصرف في اللغة وإخضاعها لأفكار الفلسفة العقلية الغربية عليها»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يمكن القول بأن التقسيم السياسي - وقد رأينا منه تقسيمين - له مبرراته التاريخية والسياسية.

والتقسيم الأدبي وقد رأينا منه تقسيمين لكل منهما فكره وفلسفته في تفسير التصور الأدبي، ولكن يوجد بينهما نقاط التقاء في إدراك الحقائق الأدبية الخاصة بتطور الأدب، وبينها كذلك وجوه خلاف في طبيعة التفسير والتحديد للظواهر والشخصيات، فبينما نجد المنتهى وأبا العلاء في قسم واحد لدى الأستاذ حنا الفاخوري نجد كلا منهما متميزاً في تقسيم الأستاذ الدكتور يوسف خليف،

(١) السابق ص ٧.

(٢) السابق ص ٧.

(٣) السابق ص ٨.

والواضح لى أن تقسيم الدكتور يوسف خليف أكثر رجحانا وقبولا فى إدراك طبيعة التطور الأدبى فى هذا العصر.

وأحب ان أشير إلى أنه لا غنى للدارس الأدبى عن معرفة التقسيمات التى تقوم على أساس تاريخى، وهو ينهض بمهمته للوصول إلى تقسيم يقوم على فقه أدبى، وهكذا يصبح إدراك التقسيم الحقيقى لهذا العصر قائما على المعرفة التاريخية بأبعادها المختلفة وقائما على الفقه الأدبى لطبيعة التطور التى حدثت فيه.

وبعد هذا التعريف الذى يجمع صورة مركزة للعصر العباسى فى مداه الطويل ومراحله المتعددة وقسماته العامة التى تميز كل قسم من أقسامه، علينا أن نتوقف عند بداية ظهور الدولة وقيامها لتتعرف على العوامل التى أثرت فيها وكونتها، والاتجاهات والتيارات التى صاحبها، ثم النتائج والآثار والاتجاهات التى نجمت عنها. فالتاريخ قراءة وتحليل، ووعى وتأمل للأسباب والنتائج والمؤثرات والآثار.

## المبحث الثاني

### نقطة التحول من العلويين إلى العباسيين

نظرًا للمظالم العنيفة التي ارتكبتها الأمويون ضد العلويين والموالي فقد تجمعت قلوب هؤلاء وأولئك على حرب الأمويين والترص بهم لا سيما بعد مقتل الإمام الحسين حيث توحدت صفوف الشيعة وقويت الدعوة لآل البيت<sup>(١)</sup>. والمعروف أن أولاد العباس عم النبي عليه السلام وهم أبناء عمومة العلويين لم يكونوا يتازعون العلويين أمر الخلافة فإن العباس بايع عليًا بن أبي طالب بالخلافة قاتلاً له: «وهم إلى أن أبايك لا يختلف عليك اثنان»<sup>(٢)</sup> ولكن حدث في مجريات الأمور ما جعل الحكم ينتقل إلى العباسيين بعد أن بذل فيه العلويون الكثير من عذابهم وقتلاهم.

والذي حدث بإيجاز شديد أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس كان يقيم بقرية الحميمة (وهي بالشام على طريق دمشق).

«وفي سنة ٩٨ هـ استدعى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب وأكرم وفادته، وأظهر التودد له، ولكنه دبر أمر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه فدس له من سمه وهو في طريقه إلى بلدة الحميمة وهي قرية صغيرة في أرض الشام والحجاز وهي التي كان يقيم فيها محمد بن علي بن عبد الله العباس<sup>(٣)</sup> ولما شعر أبو هاشم بدنوا أجله اتجه إلى محمد بن عبد الله بن عباس وأقضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ونزل له عن حقوقه في الإمامة وعرفه بأسماء دعواته في الكوفة وسلمه رسائل يقدمها إليهم»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر في مقتل الحسين مروج الذهب للمسعودي ٧٠/٣.

(٢) المسعودي ٢٥٢/٣ وسيلان مزيد بيان لذلك.

(٣) تاريخ الإسلام د: حسن إبراهيم، ص ٢/٩ ط ٤.

(٤) السابق ص ٩ ط ٤.

وهنا نجد أن ثمة سبباً تاريخياً يتسم بالصدفة تقدم ليفسح للعباسيين حق العمل من أجل السعى وراء الظفر بالخلافة من الأمويين والعلويين معاً.

ويرى المؤرخون أن أبا هاشم العلوي عدل عن أهل بيته من العلويين واتجه إلى أبناء العباس لكي يحملوا عبء طلب الخلافة والنهوض بها والسبب في ذلك فيما يبدو أن العباسيين كانوا في أواخر القرن الأول للهجرة أكثر كفاية ونشاطاً في الناحية السياسية من العلويين وأكثر تطلعاً منهم إلى النفوذ والسلطان<sup>(١)</sup>.

هذا بالإضافة إلى ما يقال من أن أبا هاشم لم يجد بين أفراد البيت العلوي من يستطيع النهوض بأعباء الخلافة وإمامة المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وهناك مسألة جديرة بالملاحظة وهي أن نزول أبي هاشم للعباسيين لا يُعد بحق نزولاً من العلويين للعباسيين عن حق الخلافة والإمامة؛ ولذلك فإن فريقاً كبيراً من العلويين ظل متمسكاً بعقائد الشيعة الإمامية ووقفوا صامدين في وجه العباسيين أولئك الذين سلبوهم جهادهم وكفاحهم في الحصول على الخلافة<sup>(٣)</sup>.

### تنظيم الدعوة العباسية وتولى الخلافة :

رأى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أن نقل السلطة إلى العباسيين لا بد له من تخطيط وتنظيم وإحكام للحبشة، لأنه أولاً سوف يعتمد على دعاة الشيعة العلويين، دون علم منهم بأنهم يجاهدون في سبيل العباسيين، بل علمهم ومطمح أمالهم أن تنتقل الخلافة إلى العلويين، فتلك غايتهم بل عقيدتهم التي يموتون في سبيلها، ولكن محمد ابن علي العباس خطط ودبر لاستخدام الدعاة والنقباء من الشيعة العلوية، وفي الوقت ذاته أخذ بشدة دهائه يضيف إليهم دعاة ونقباء بل قادة جددًا في الدعوة للعباسيين، ولكنهم جميعاً ينشرون دعوتهم تحت شعار «الرضا من آل محمد» فهذا الشعار يشمل العلويين أبناء علي

(١)، (٢) السابق ص ١٠ ط ٤.

(٣) السابق ص ١٠ ط ٤.

وفاطمة، وأبناء العباس وقد بدأت هذه الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة، وقد ركز محمد بن علي بن عبد الله العباسي دعاته في خراسان، وقد شرح في عبارة واضحة فكرته السياسية التحليلية عن ظروف نجاح دعوته أو فشلها بين أهالي الولايات الإسلامية المختلفة حيث يقول:

«أما الكوفة وسواها فشيعة علي، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف، وأما الجزيرة فحرورية<sup>(١)</sup> وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصراني، أما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان؛ فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أيدان وأجسام ومناكب وكواهل، وهامات ولحى، وشوارب، وأصوات هائلة، ونغات فخمة تخرج من أجسام منكورة، وبعد فاني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»<sup>(٢)</sup>.

هكذا بدأت الدعوة سرية من الحميمة في أوائل القرن الثاني في عهد عمر بن عبد العزيز، وأرسل محمد بن علي العباسي دعاته سرا إلى خراسان متظاهرين بالتجارة واستطاع واحد منهم هو «أبو عكرمة» أن يختار سبعين داعية للعباسيين منهم اثنا عشر نقيباً، ولكنهم كما تقرر من قبل يدعون «للرض من آل محمد».

وفي عام ١٢٥ هـ مات الإمام محمد بن علي العباسي، وكانت الدعوة السرية بجهوده وتدبيره ورجاله قد قطعت شوطاً بعيداً وقد أوصى بالإمامة بعده لابنه (إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس).

وفي عهد إبراهيم هذا تم الاتصال بذلك الشاب الشجاع ذي السطوع والطموح والقوة وهو أبو مسلم الخراساني<sup>(٣)</sup> وبانضمامه إلى الدعاة العباسيين دخل

(١) نسبة إلى قرية بظاهر الكوفة يقال لها حروراء نزل بها الخوارج وصموا حرورية.

(٢) أحسن التفاسيم في معرفة الأقاليم للمقننى ٣/ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) راجع عنه مروج الذهب للمسعودي ٣/٢٥٤ ط ٤ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، وانظر

تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٢/ص ١٤ - ١٥ ط ٤.

أمر هذه الدعوة في طورها الثاني طور التدبير القوي والاستعداد للمواجهة واستثمار الظروف السياسية المختلفة لتداعى البيت الأموي، ومن بينها تصارع القوى العربية من مِثْيَةٍ ومضريّة حيث اشتعلت نيران العصية بين القبائل في خراسان، وعرف أبو مسلم بدعائه ودكائه كيف يستثمر ويستفيد من تلك الفرقة بين العرب في خراسان، وبدل على شدة دعائه أنه رابط بجنده سبعة أشهر في مدينة (مرو) قاعدة خراسان وظل يقرب الحوادث يؤرّث نار الفرقة بين القبائل المتنازعة، واستمال إلى صفوفه اليمانيين وتمكن من الاستيلاء على خراسان دون أن يهلك جنده، وبعد التمكن قضى على شيوخ القبائل المتنازعة فقتلهم جميعاً<sup>(١)</sup>.

«وقد أدرك نصر بن سيار والي خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبي مسلم وضعف الجند الأموي في خراسان وختم كتابه بهذه الأبيات.

أرى بين الرماد وميض نار فأحز بأن يكون له ضرام  
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها الكلام  
فقلت من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام؟<sup>(٢)</sup>

ثم صار أمر الإمام إبراهيم بن محمد بن علي العباسي إلى الانكشاف حيث وقع في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاب إبراهيم إلى أبي مسلم الخراساني الذي يأمر فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان، فقبض عليه الخليفة الأموي مروان بن محمد وسجنه في (حران) وقتله، ولما علم إبراهيم بنهائيه عهد بأمر الدعوة والدولة المرتقبة إلى أخيه (عبد الله بن محمد بن علي العباسي) الذي عرف فيما بعد بأبي عبد الله السفاح.

وفي عهد أبي العباس عبد الله بن محمد هذا تمت المواجهة بين العباسيين والأمويين وفر الخليفة الأموي مروان بن محمد إلى مصر وتم قتله على أيدي

(١) راجع تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ١٤/٢ - ١٥ ط ٤.

(٢) السابق ص ١٥ - ١٦.

العباسيين بقرية «بوصير» من أعمال الفيوم وبذلك انتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية<sup>(١)</sup>.

والملاحظ بوضوح أن الدعوة السرية للرضا من آل البيت وجدت استجابة قوية لدى كثير من الفرس الموالي؛ لأنهم كانوا يتوقون إلى التخلص من مظالم الأمويين، وتعاليمهم عليهم ونكالمهم بهم.

وهناك سبب ديني سياسي تنبى الإشارة إليه في هذا السياق حيث يرى المؤرخ «جوينو» أن نظرية الحق الإلهي وحصرها في البيت الساساني كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التي تلتها، ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب، غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثوري غير مطابق لطبائع الأشياء. أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التي أضمرها هؤلاء الفرس لعمر رضى الله عنه) ثاق الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية، وأن هذه النزعة وإن تسرت بستار الدين فلن يفوت الباحث تفهم أسرارها ومرمبها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الحسين وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبي (عليه السلام)... قالوا إنه تزوج من «شهربانوه» ابنة يزدجرد الثالث آخر منوك آل ساسان، ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه: طائفة الإثنا عشرية الشائعة الآن في بلاد فارس، وطائفة السبعية أو الاسماعيلية لا يمثلون حق النبوة فقط بل يمثلون الملك أيضاً لأنهم من سلالة النبي محمد «عليه السلام» وآل ساسان معاً<sup>(٢)</sup>.

من كل ذلك تولدت لدى الفرس النظرية السياسية التي يشير إليها «جوينو» في العبارة الآتية: «وكانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس وهي أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج وذلك بصفتهن المزدوجة لكونهم واريق آل ساسان من جهة أهمهم «شهر بانوه» ابنة

(١) انظر تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ١٥/٢ - ١٧

(٢) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ١٢/٢ - ١٣

يزدجرد آخر ملوك الفرس والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً<sup>(١)</sup>.

وهكذا التقت عواطف الموالي مع العلويين بسبب الاضطهاد الواقع عليهما من الأمويين، والتقت العقائد السيامية والدينية في الهدف والنتيجة وإن اختلفت في السبب والدافع لكنها تلتقى عند الإيمان بحق العلويين في الخلافة؛ ولذلك وجد دعاة الشيعة بيئة خصبة لدى الموالي، بل وجدوا فيهم العضد والجند الذين انتزعوا لدعوتهم النصر ضد الأمويين.

ويجب أن نتذكر في هذا السياق التاريخي أن عوامل الضعف كانت قد باشرت فعلها في البيت الأموي ذاته فالوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي ولي الخلافة (١٢٥ - ١٢٦ هـ) كان فاسداً مدعماً للخمر منادياً للفساق والمغاني، وكان قد أرهق الناس بفساده ومظالمه كآبئه من قبل.

وقد صور المسعودي الأسباب التي أدت إلى زوال ملك بني أمية حيث يقول: وذكر المنقري قال: «سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها<sup>(٢)</sup> عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال إنا شغلنا بلبذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة مناءً وتحويل على أهل خراجنا فتخلوا عنا، وخرت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادياننا فتظاهروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فمعجزنا عنهم لقللة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا<sup>(٣)</sup>».

ومن الأحداث المباشرة في سقوط بني أمية انتشار روح العصية في المجتمع العربي، وقد سبق أن رأينا كيف استثمر أبو مسلم الخراساني الخلاف بل القتال بين القبائل المضرية واليمينية بخرسان.

(١) تاريخ الإسلام، د. حس إبراهيم ص ١٣/٢.

(٢) أي العارفين بتاريخهم وأخبارهم.

(٣) مروج الذهب، للمسعودي ٤٣١/٣ ط ٤ تحقيق محي الدين عبد الحميد.

وهناك ملاحظة هامة يجب التنبيه إليها وهي أن العباسيين كان لهم أنصار يتشيعون لهم وهم «الراوندية» يقول المسعودي :

«الراوندية - وهم شيعة ولد العباس ابن عبد المطلب من أهل خراسان وغيرهم - (بيرون) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس ابن عبد المطلب لأنه عمه ووارثه، وعصبته، لقول الله عز وجل : «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره إلى أن رده الله إليهم..»

«وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإجازته<sup>(١)</sup> لها وذلك لقوله : يا ابن أخي<sup>(٢)</sup> هلم إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان. ولقول داود بن عليّ على منبر الكوفة يوم بويج لأبي العباس : يا أهل الكوفة لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علي بن أبي طالب وهذا الفائم فيكم - يعني أبا العباس السفاح<sup>(٣)</sup>».

وهذا يدل على أنه لم يكن في البداية ثمة نزاع بين العلويين والعباسيين بل هم أبناء عمومة رضوا في البداية جميعاً مبايعة عليّ، ولكن عندما تشيع الناس وتحزبوا فيما بعد ظهر من يرون أحقية ولد العباس بالخلافة، ولكن الناس إسان العمل السري لدعاة الشيعة كانوا لا يحسون قادمًا جديدًا للخلافة إلا من أبناء فاطمة الزهراء، لدرجة أن «أبا سلمة الخلال» وهو وزير آل محمد أي وزير الدولة الجديدة والحكومة الجديدة التي ظهرت إثر سقوط الأمويين وخلال المعارك معهم رأى أن يختار للخلافة واحدًا من أحفاد علي بن أبي طالب وأحفى هذه النية، وكان جنود الفرس من أهل خراسان الذين يقومون بعسبه إسقاط الأمويين لا يعرفون شيئاً عن أمر آل العباس، وأحسن أبو العباس عبد الله

(١) الصمير في قوله بإجازته : المقصود به : العباس بن عبدالمطلب.

(٢) يعني علي بن أبي طالب.

(٣) مروج الذهب ٢٥٢/٣ ط ٤ عمى الدين. وانظر عن زندقته تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم

ابن محمد (الذي عرف فيما بعد بالسفاح) بنوايا أبي سلمة الخلال، لأنه عندما نزل أبو العباس وأعمامه الكوفة أخفق أبو سلمة أمره عن الناس وعزله عزلاً تاماً عنهم، فأحس أبو العباس الخشية من موقف أبي سلمة الخلال، فوجه إلى أبي مسلم الخراساني من أطلعه على نوايا أبي سلمة الخلال<sup>(١)</sup>، فأرسل أبو مسلم إلى أبي العباس وفدًا من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة، واتجه أبو العباس من توه إلى مسجد الكوفة الجامع فباعه الناس، وارتقى المنبر وخطب الناس فإذا به يحتج بأى القرآن الكريم على أن بيته العباسي أحق بالخلافة من غيره أى من العلويين.

وفي هذا الجو الذي تكشفت فيه قوة أبي العباس وشدة ذكائه وقوة إرادته اضطر أبو سلمة أن يعلن تأييده له، ومن المفيد لنا ونحن بصدد دراسة الأدب في هذا العصر أن نورد نص خطبة أبي العباس في مسجد الكوفة لتبين منها فكرة البيت العباسي في أحقيته بالخلافة من الناحية الشرعية. وهذا نصها كما أورده - الطبري<sup>(٢)</sup> : يقول : « إن أبا العباس لما صعد المنبر حين بُوع له بالخلافة قام في أعلاه وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم أبو العباس فقال : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكريمة، وشرفه وعظمه واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله، وكهفه وحصنه، والقوام به، والذابين عنه، والناصرين له وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نَبِئِهِ. جعله من أنفسنا، عزيزاً عليه ما عتتنا<sup>(٣)</sup> حريصاً علينا بالمؤمنين رءوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن : « إنما يريد الله ليذهب عنكم

(١) راجع تفاصيل هذا الموقف في الطبري ١٢٨/٩-١٢٩ ط أول.

(٢) الطبري ١٢٥/٩-١٢٦ ط أول.

(٣) يعنى عز عليه أن نفع في أمر شاق يشير إلى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، آخر سورة التوبة.

الرجس<sup>(١)</sup> أهل البيت ويطهركم تطهيرا». وقال: «قل لا أسألكم عليه حجراً إلا المودة في القربى» وقال: «وأندرك عشيرتك الأقربين». وقال: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القربى والیتامى». وقال: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذی القربى والیتامى» فأعلمهم جل فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من النوى والغنمة نصيبنا، تكريمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم، وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم ثم ولم، أيها الناس؟! وينا هدى الله الناس بعد ضلاليتهم، وبصرهم بعد جهلهم وأنقذهم بعد هلكيتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا مبهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الحسياسة، وثم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم وديارهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم. فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم. فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم فحوروا موارث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها. وخرجوا خصاصاً<sup>(٢)</sup> منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها، وتداولوها بينهم، فجازروا فيها، واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه<sup>(٣)</sup> فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا والقمام بأمرنا، ثم بنى على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإن لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة أنتم عمل عنتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يُؤسبكم عن ذلك تحامل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأتم أسعد الناس بنا وأكرمهم

(١) الغدر أو العقاب أو الغضب.

(٢) خصاصاً: أى جياًعاً من الخصمة وهى الجوع.

(٣) أغضبوه.

علينا، وقد زدتكُم في أعطياتِكُم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السُّقْلُ المَبِيحُ والثائِرُ المَبِيرُ»<sup>(١)</sup>.

وكان مُوعِظاً فاشتد به الوَعَكُ فجلس على المنبر، وصعد داوُدُ بنُ عليّ فقام دونه على مراق المنبر فقال الحمد لله<sup>(٢)</sup>، وأخذ يخطب الناس ويقول قولاً على نسق كلام أبي العباس ينتصف فيه للعباسيين وللناس من بنى أمية، ويكشف عن مظالمهم وعن نعمة الله منهم ويؤمن الناس على حقوقهم، ويهتهم بنعمة الله عليهم حيث رد الخلافة إلى آل بيت النبي عليه السلام، وبطمئنتهم على إحقاق الحق ويشيد بالكوفة وأهلها وأهل خراسان.

ويلفتنا في كلام داود بن علي قوله: «ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس»<sup>(٣)</sup> فهذه العبارة توضح أن داود يدين بعقيدة الشيعة الحرورية التي تتشع للعباسيين، وتكشف عن طبيعة علاقة العباسيين بالعلويين قبل هذا اليوم، وفيه تنبيه للعلويين بأنه يجب عليهم أن يبايعوا اليوم العباسيين بالخلافة كما بايع ابن العباس علي بن أبي طالب من قبل ولم ينكر عليه أمر الخلافة، ويجب إذن أن يقابل الوفاء القديم بوفاء جديد.

وبعد أن انتهى داود بن علي نزل أبو العباس وداود بن علي أمامه وجلس أبو جعفر بالمسجد ليأخذ البيعة من الناس فلم يزل يأخذها حتى صلى بهم المغرب. وبعد تمام البيعة تحول أبو العباس السفاح من الكوفة إلى الأنبار وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ وانتهى به الأمر إلى تجديدها وبنائها واتخذها عاصمة للملكة.

(١) ويمكن مراجعة النص في جمهرة خطب العرب ٦/١ - ٨ وتاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم

ص ٢١/٢.

(٢) الطبري ١٢٦/٩. وجمهرة خطب العرب ٨/٣.

(٣) الطبري ١٢٧/٩. وجمهرة خطب العرب ١٠/٣.

وهنا نتبين فرقاً هاماً في إدارة الدولة إذ كانت عاصمة الأمويين « في دمشق على حدود بادية العرب وكان خلفاء تلك الدولة عرباً وجنودها وقوادها وعمهاها من العرب، وكذلك كتابها وقضاها وسائر رجال حكومتها.

أما الدولة العباسية فقد نصرها الفرس فجعلت قصبها (بغداد) على حدود بلادهم واتخذت وزراءها وأكثر أمرائها وقوادها منهم، ولما عمرت بغداد تقاطر إليها الناس للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو الأدب أو الشعر أو بأسباب الملامى. فالتقى فيها العربى والفارسى والرومى والنبطى والتركى والصقلبى والهندى والبربرى والزنجى وفيهم المسلم والنصرانى واليهودى والصابى والسامرى والمجوسى والبوذى وغيرهم... وما زالت البصرة والكوفة مجتمع أهمل الأدب حالم والشعر حتى عمرت بغداد فأصبحت بما استبحر من عمراتها هى وحدها أم المدائن الإسلامية وبزة العلم ومجتمع العلماء، ثم شاركتها فى ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق والقيروان وغيرها<sup>(١)</sup>.

ونعود إلى أبى العباس السفاح فنشير إلى أنه قضى معظم عهده فى محاربة العرب الذين ناصروا بنى أمية وقضى على أعقاب الأمويين ولم يفلت منهم أحد إلا عبد الرحمن الداخلى الذى أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس، وكذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته فتقل أبى سلمة الخلال، وهم بقتل أبى مسلم لولا أن عاجلته منيته<sup>(٢)</sup>.

ثم جاء أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧ وقاتل أبى مسلم، وأبو جعفر المنصور كأخيه السفاح كان رجلاً قوياً مقنعاً حتى فى عنفه وإجراءاته القوية لحماية الدولة وهذه خطبته التى خطب بها الناس بالمدائن بعد قتل أبى مسلم، وبالمقارنة كأنما هى قطعة من خطبة أخيه السفاح التى أوردناها آنفاً عند أخذ البيعة لنفسه. يقول أبو جعفر المنصور:

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢٠/٢-٢١ طبعة دار الهلال مراجعة وتعليق،

د. شوق ضيف.

(٢) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ٢١/٢.

«أيها الناس لا تخرجوا من أنسب الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تُسِرُّوا عُش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله للإمامة بإعزاز دينه وإعلاء حقه. إننا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عُزوة هذا القميص أجززناه حياً هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أبلح دمه - ثم نكث بنا، فحَكَمْنَا عليه حكمه على غيره لنا - ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه»<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان الولاة العرب يقبضون على زمان الخلافة وناصية الدولة بأيديهم مع أن أعوانهم ووزراءهم من الموالى الفرس، ولكن شدة تمكن الفرس من أجهزة الدولة لم يكن له أدنى تأثير على قوة الخلافة لدرجة أن الرشيد نكّل بالبرامكة مع كثرة عددهم وسيطرتهم التامة على شؤون الدولة، وهذه السمة كانت طابعاً عاماً للخلفاء العباسيين حتى ولاية المعتصم.

(١) الطبري ٣١٣/٩. وجمهرة خطب العرب ٣١/٣ ط ٢ سنة ١٩٦٢ (وكان اعتادنا دائماً على الطبري رغم وثاقه هذا الأخير).

## المبحث الثالث

### ملامح عامة عن الخلافة والخلفاء

نقصد هنا إلى توضيح بعض الملامح العامة لشخصيات الخلفاء الكبار في الدولة العباسية لاسيما في عصرها السياسي الأول، وسوف نتوقف عند شخصية هارون الرشيد صاحب قضية: العصر الذهبي.

وقيمة هذا التوضيح في هذه الدراسة أنه يضع أبلدنا على بعض السيات العامة والخصائص المشتركة التي تمثل مفتاح الفهم لطبيعة الحكم، ونوع الاتجاه الغالب على الدولة في حياتها السياسية والاجتماعية والثقافية، وهذا بدور. يوضح لنا العوامل التي أثرت بل وجهت الحياة العباسية وحركة المجتمع البشري فيها، وبالتالي تركت أثرها وطابعها في توجيه الحياة الفكرية والثقافية بصفة عامة، والأدبية بصفة خاصة، وعند التمهيد سنجد أنها شكلت مفردات المعاني داخل الموضوعات العامة والخاصة التي تناولها الشعراء.

والدراسة التي نقدمها هنا ليست دراسة تاريخية بالمعنى المعهود في دراسة التاريخ بل هي بالأحرى أضواء مختارة من المواد التاريخية في حياة الخلفاء العباسيين الكبار، نعرضها عرضا القصد منه خدمة الدراسة الأدبية، فما تزال دراسة التاريخ الأدب تنفرد برؤية خاصة في فهم التاريخ العام وتحليله: لأن مؤرخ الأدب مؤرخ لفرع من فروع الحضارة الفكرية والفنية<sup>١١</sup>، وهذا السرع لا يستوعب فقط قطاعا من الحياة الفكرية والفنية، بل يستوعب حياة الإنسان بكل أبعادها المادية والفكرية والشعورية، وهو سجل عبقري للحياة الإنسانية في

(١) انظر في علاقة التاريخ العام بتاريخ الأدب: منج البحث في الأدب واللغة تأليف لاسون ترجمة د. محمد منور ص ١٩ ومابعدها ١٩٤٦ بيروت.

وانظر أيضا: نظرية الأنواع الأدبية ترجمة د. حس عيون. المجلد الثاني ص ١٣ ومابعدها. ط١٩٥٨.

شئ أبعادها وهو الذى يستطيع أن يصور من ملامح الحياة وأسرارها الكثير مما يضيع أو يُهمل فى التاريخ العام نتيجة القهر السياسى والاجتماعى المتعدد الأشكال والمعقد الأساليب والذى لانتفض وثيقة تاريخية بتصويره غير الأدب، ومن ثم فهذا الفرع من تاريخ الحضارة له رؤية ذات منازع معقدة متشابكة تملئ على مؤرخه قراءة التاريخ العام وتحليله بما يساعد على فهم الحياة الأدبية والعوامل المؤثرة فيها.

ومن ثم فإن هذه الفصلة من بحثنا يستطيع معها قارئى التاريخ الأدبى فى بقية الكتاب أن يعلل ويحلل الظواهر الأدبية التى ملأت الساحة، وتباينت سماتها وملاعها فى الفترات المختلفة التى يجمعها العصر العباسى فيما يربو على خمسة قرون.

وابتداءً فلا بد أن نتذكر الرجال الأوائل الذين قاموا بعبء النهوض بالدعوة العباسية منذ آلت إليهم، وأولهم محمد بن على بن عبد الله بن العباس، على نحو ما شرحنا سابقاً، فدوره فى نشر الدعوة السرية يحتاج إلى إيمان قوى بالدعوة التى عاش يدفع حركتها فى الخفاء، وهذا الخفاء نفسه يحتاج إلى قوة مراس وشدة تنبه، وبعد نظر لفهم كل الملابس السياسية والاجتماعية والأخلاقية لأنه يتعامل مع الأفراد والمجتمع والدولة تعاملًا يمارس فيه لعبة الحياة والموت، له ولكل أنصاره وأتباعه الذين يمكن أن ينكشف أمرهم، وقد قام بهذا الدور بعد محمد هذا ابنه إبراهيم، وقد اكتُشِف أمره بالفعل عن طريق اكتشاف خبر كتابه السرى إلى ابن مسلم الخراسانى الذى يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بأرض خراسان.

ولكن الجدير بالملاحظة فى تاريخ هذه الحركة الشيعية السرية أنها استمرت، فقد تولى بعده ابنه إبراهيم ثم أخوه عبد الله الذى أصبح أول خليفة عباسى، وعرف بأبى العباس السفاح، وبداية الخيط تكمن فى أنها أسرة ذات جلد وقدره على التدبير وبراعة فى القيادة فى السر والعلن، وهى تعرف الوفاء والعطاء لمن يقف إلى جانبها وتسرف فى البطش إذ تشككت فى النوايا، فضلاً عن ضبط الوقائع وظهور الملابس.

ونستطيع أن نتبين الصفات العامة والهامة لأبناء هذه الأسرة حينما نراها  
تباشر دورها على المسرح السياسى للدولة :

### ١ - أبو عبدالله السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) (١) :

كان السفاح رجلا وسيا جميل الخلقة ويقول الطبرى : « كان فيما دُكر ذا  
شعرة جمدة وكان طويلًا أبيض، أقى الأنف حسن الوجه واللحية » (٢).  
ويقول الفخرى (ص ١٣٤) : « إنه كان كريما حلما وقورا، عاقلا كاملا،  
كثير الحياء حسن الأخلاق » ويقول السيوطى فى تاريخ الخلفاء (ص ١٧١) :  
« وكان السفاح أسخى الناس، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها، ولا قام من  
مجلسه حتى يقضيها. . وكان نقش خاتمه (الله ثقة عبدالله وبه يؤمن)، ويثر عنه  
قوله : « إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عبدّ البخل حزمًا والحلم ذلا. .  
والصبر حسن إلا على من أوقع الدين وأوهن السلطان، والأناة محمودة إلا عند  
إمكان الفرصة. »

ويقول المسعودى : « ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل  
أبي العباس السفاح، وكان كثيرا ما يقول : « إنما العجب ممن يترك أن يزداد  
علما، ويختار أن يزداد جهلا » (٣).  
وكان السفاح يسمع الغناء والموسيقى من وراء الستر ويصيح بلطرب  
احسنت والله فأعد هذا الصوت، وكان لا يتصرف عنه أحد من ندمائه  
ولامطريه إلا بصلة من مال.

وكان عظيم الوفاء لزوجته أم سلمة، كبير التقدير لها (٤).

ومن جملة أخباره، ندرك أنه رجل مكتمل الشخصية قويا، صاحب فكر  
ونظر فى المسائل، وأنه يفرق بين المعنى ونقيضه الذى يلتبس به، وأنه صاحب

(١) راجع الطبرى ١٢٣/٩ (١٣٢).

(٢) السابق ١٥٤/٩.

(٣) مروج الذهب ٢١٧/٢.

(٤) راجع تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٢١/٢ - ٢٤.

عطاء، راغب في تطهير نفسه بالمعرفة والترفيه، وأنه صاحب مودة ومؤانسة، وصاحب عزم وحزم، وحلم ووفاء للأوفياء، وصاحب احتراس إذا شك، وبطش إذا غضب، أو زهب.

وجل هذه الصفات سوف نجدتها تمثل القاسم المشترك الأعظم مع تفاوت في الدرجة بين بقية خلفاء هذا البيت.

## ٢ - أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) (١):

كان شديد البأس حادّ اليقظة صاحب حزم واهتمام بمصالح الرعية. يقول عنه الطبري (٢): «كان المنصور اسمر طويلاً نحيفاً، خفيف العارضين». وكان يوزع يومه على تبعات عمله ففي صدر النهار ينظر في أمور الدولة فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، وبعد صلاة العشاء ينظر فيما يرد إليه من كتب الولايات والشعور ويشاور وزراءه ورجال دولته، فإذا انتهى انصرف إلى المسامرة، ثم يذهب إلى فراشه بعد الثلث الأول وينام الثلث الثاني، ثم يقوم فيتوضأ ويجلس في محرابه إلى مطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يذهب إلى ديوان عمله ليبدأ يومه.

وكان مشهوراً بالجد ولم يعرف عنه الميل إلى اللهو أو العسث، وكان يكره ظلم الرعية ويدفع مظالم الولاة عن الأفراد، وكان يكره سفك الدماء إلا بحق يراه، وكان يكره العقاب لرية أو ظنه وإنما بثبوت التهمة.

وكان المنصور شديد الثبات عند الشدائد، وكانت كثيرة في عهده، وقد مكنته هذه الصفة العالية من التغلب على من خرجوا عليه، من أبناء بيته وأبناء عمومته العلويين، وثبت أركان دولته بعد هبوب عاصفة شديدة عليها.

ولم يكن المنصور يبعثر أموال الدولة، بل كان يقتصد في النفقة، ومما يحكى

(١) الطبري ١٥٤/٩ (عام ١٣٦ م).

(٢) السابق ١٥٤/٩.

أن أحد أصدقائه قبل الخلافة زاره مرة وهو خليفة، ودار بينهما حديث، فعرف من صاحبه أن لديه زوجة وثلاث بنات، وأربعة مغازل لنسج الثياب، فقال له المنصور: «أنت أيسر العرب، أربع مغازل يدرن في بيتك».

ومما يروى أنه راجع الحساب في أجرة بناء قصره، فأنقص درهماً في كل وحدة عمل، فأصبح البناء وعماله مدينا في ستة آلاف درهم، فاعقله في القصر حتى ردها، واشتهر بالتشدد في محاسبة العمال والصناع، وكان يخاسمهم بخصم شيء من أجرتهم نظير التأخير في الصبح، أو الانصراف المبكر من العمل، أو الراحة وقت الظهيرة.

ويقول المسعودي<sup>(١)</sup>: «كان يعطى الجزيل ما كان إعطاؤه حزمًا، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعًا» وكان يقول: «لو أن عندي ألف بعير، وعندى بعير أجرب، لقمتم عليه قيام من لا يملك غيره».

ولعل في وصف صاحب الفخرى (ص ١٤١ - ١٤٢) ما يجمع أبرز سمات هذه الشخصية حيث يقول: «كان المنصور من عظماء الملوك، وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم، وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة، وقورا شديد الوفاء حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام تغير لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه... وكان المنصور يلبس الخشن، وربما رقع قيصه» وعرف المنصور بالفصاحة وقوة الحجّة.

لكن مسألة عدم إراقة الدماء إلا إذا رأى الحق في ذلك ينبغي أن تفهم في كل أمر بعيد عن سلامة الخلافة. أما إذا رأى ما يعرض الخلافة لأذن ملابسة من مكروه فإنه ما كان يتوانى في القتل والسفك، وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم أسلوبه في قتل أبي مسلم الخراساني<sup>(٢)</sup>، فهناك فرق بين حرصه على العدل

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) السابق ص ٨٥ - ٨٩.

وعدم تعرض أحد لمظالم الولاية في عهده، وحرصه على سلامة الدولة، وهر أمر يستدعى المبالغة في الاحتراس ولذا جاءت الكتب مضطربة فيما ترويه عنه فمرة تقول: وكان المنصور لا يجب سفك الدماء ومرة أخرى تقول: «إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله إلى سفك الدماء»<sup>(١)</sup>.

### ٣ - المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ)<sup>(٢)</sup>:

«كان في العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي واني خراسان».

ولما بويع بالخلافة تقبل العزاء في أبيه والتهنئة لنفسه وكان خطيباً بيناً، ولما تمت له البيعة خطب الناس فقال: «إن أمير المؤمنين عبد دُعي فأجاب، وأمر فأطاع - واغرورقت عيناه - فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة. ولقد فارقتُ عظيمًا، وقُلدتُ جسيمًا، وعند الله أحسنت أمير المؤمنين، وبه عز وجل أستعين على خلافة المسلمين» ثم تفرق الدمع في عين المهدي، ولم يتمكن من إطالة الخطبة لما شعر به من شدة الحزن»<sup>(٣)</sup>.

وإذا صح القول بأن عهد تأسيس الدولة العباسية كان عهد الشدة والقمع فإن عهد المهدي كان عهد الاعتدال، وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التي صودرت في عهد أبيه، كما أطلق سراح العلويين من سجنهم، ورد عليهم أرزاقهم، وأنفق الأموال الطائلة التي تركها أبوه في كثير من وجوه الإصلاح، فبنى الأبنية في طريق مكة، وأضاف إلى ما بناه أبوه في الجهات الأخرى، وأجرى الأرزاق على بعض المسجونين وذوى الأمراض حتى يمتنع أذاهم ويكفوا عن سؤال الناس وعدواهم وبنى أحواض السقاية حول الأبار في طريق

(١) راجع: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم، ٢/٢٩ - ٣٢.

(٢) الطبري ٩/٢٢٣ (عام ١٥٨هـ).

(٣) راجع تاريخ الإسلام، د. إبراهيم ٢/٣٦ - ٣٧.

القوافل، وأقام الأميال وجدد البريد، وجملة إصلاحاته أدت إلى سيادة العدل وانتشار الرخاء<sup>(١)</sup>.

وقد صارت بغداد في عصره قبلة الأنظار ومركزاً هاماً لتجارة العالم، وأصبحت الفنون والآداب من مميزات العصر وسماته اللامعة، والفنون والآداب تزدهر كثيراً في جو الأمن والرخاء والاستقرار ومع نهضة العلوم والمعارف وتكريم العلم والعلماء.

وما يقال في سعة يده «أن المنصور خلف أربعة عشر مليون دينار وستة مليون درهم، ففرقها المهدي في الناس سوى ما جبي في أيامه»<sup>(٢)</sup>.

وفي بعض ما رواه المسعودي وهو كثير<sup>(٣)</sup>، ما يوضح لنا طبيعة الحياة من الرفاهية والأمن، وتدلل الأدباء بمحاجاتهم على المهدي، لدرجة أن أبا العتاهية كان يجب «عتبة؟ جارية «الخيزان»، ولما كثر تشييب أبي العتاهية بعتبة. شكت إلى مولاتها ما يلحقها من الشناعة، ودخل المهدي وهي تبكي بين يدي «الخيزان» فسألها عن خبرها فأخبرته، فأمر بإحضار أبي العتاهية. فلما وقف بين يديه قال: أنت القاتل في عتبه:

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصد والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك؟ قال: «يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل أنا الذي قلت: وأنشد شعراً في مدح الخليفة، ثم يعود المهدي ويقول له: ألسنت القاتل:

ألا ما ليدق ما لها أدلاً فأحمل إذ لها  
وجارية من جوارى الملوكة قد أسكن الحسن سربها

(١) راجع تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ص ٣٧ - ٣٨ ج ٢.

(٢) ضحى الإسلام ١٧/١ ط أول.

وانظر حضارة الإسلام في دار السلام ص ٦٤ - ٩٠ جيل نخلة المنور، ط ١٩٣٢ القاهرة.

(٣) مروج الذهب ٣/٣٢٥ وما بعدها، تحقيق محمد محي الدين.

ثم يسأل المهدي: وما علمك بما حواه سراها؟ فأجابه مذكراً إياه بمدائح  
فيه:

أنته الخلافة منقادة إليه تجرجر أذيالها  
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ثم سأله (المهدي) عن أشياء فأفجم أبو العتاهية في الجواب فأمر المهدي  
بجلده نحواً من حد، وأخرج مجلوداً، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال. فقال:

بخِ بخِ يا عتبُ من أجلكم قد قتل المهدي فيكم قتيلاً

فترغرت عينها وفاض دمعها، وصادفها المهدي عند الخيزران، فقال:  
«ما لعتبة تبكي؟ قالوا له: رأت أبا العتاهية مجلوداً، وقال لها كيت وكيت،  
فأمر له بخمسين ألف درهم، ففرقها أبو العتاهية على من كان بساليب...  
فوجه إليه (المهدي): ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها؟ قال:  
ما كنت لأكل ثمن من أحببت فوجه إليه بخمسين ألف أخرى وحلف عليه  
ألا يفرقها فأخذها وانصرف<sup>(١)</sup>».

ولكن أبعاد الإيحاء في الموقف تتضح أكثر وأكثر فيما نعرف من أن أبا  
العتاهية لم يستسلم لليأس من محاولته وراء عتبة.

يقول المبرد: «أهدى أبو العتاهية إلى المهدي في يوم (مهرجان) (صينية)  
فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية:

نفسى بشيء من الدنيا معلقةً الله والقائم المهدي يكفيها  
إن لأ بأس منها ثم يُطمِئني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهتم (المهدي) أن يدفع إلية عتبة، فقالت له: أمير المؤمنين مع حرمتي  
وحق وخدمتي تدفعني إلى بائع جوار يكتسب بالشعر؟ فبعث إليه: أما عتبة  
فلا سبيل لك إليها. وقد أمرنا لك بملء البرية (الصينية) مالا، فخرجت عتبة

(١) مروج الذهب ٣/٣٢٥ - ٣٢٦. تحقيق عماد محي الدين.

وهو يناظر الكتاب، ويقول: إنما أمر لي بدنانير، وهم يقولون: بدرهم، فقالت: أما لو كنت عاشقاً لعتبة لشغلت عن العين والورق<sup>(١)</sup>.

فالقصة بأحداثها ورواياتها المختلفة تفيض بأنواع من الدلالات عن الرفاهية والطمأنينة وحرية الشعراء والجواري في رحاب الخلافة، وطبيعة العصر في مزاجه العام ثقافياً واجتماعياً. ولا يكون مثل ذلك إلا حيث يكون الاستقرار السياسي والقبض على زمام الأمور والتطلع نحو حياة يواكب فيها الترف الحرية الشخصية، وتسمح السلطة رغم هيبتها بمداعبات الشعراء وعبثهم مع الجوارى المقربات في بلاط القصر<sup>(٢)</sup>.

وللمهدى أخبار متنوعة مع الشعراء، ورواة التاريخ، والنسك كلها تدل على أن عصره عصر فكر وثقافة وحرية كل ذلك في ظل سلطة قابضة ودولة متمكنة.

#### ٤ - موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠هـ)<sup>(٣)</sup>:

هو ابن المهدي وقد عهد والده بالخلافة إليه ثم لأخيه هارون بعده، ثم فكر في تقديم هارون عليه لأنه كان موضع الحب والإعجاب من أبيه المهدي، وأمه الخيزران، وكان الهادي عند وفاة أبيه في ولاية (جرجان) فأخذ أخوه هارون البيعة له، وأرسل إليه بجاتم الملك ووصلجانه، وكتب إليه معزياً ومهنئاً، واستمر في الخلافة سنة وثلاثة أشهر.

ومع أن هارون أخذ البيعة لأخيه وهو بعيد في جرجان، فقد عزم الهادي على خلع أخيه هارون وأخذ البيعة لابنه جعفر، وقد استشار في ذلك وزيره يحيى ابن خالد بن برمك، فأشار عليه بالترث وأن يحتال للأمر لصغر ولده، ويروى

(١) مروج الذهب ٣/٢٢٦ - ٢٢٧. تحقيق محمد محي الدين.

(٢) سوف تأتي دراسة موسعة لأن العتابة في زهده وغزله وكل ما يتصل بالثورات في تكويه وده

الشعري.

(٣) الطبری ٢١/١٠ (عام ١٦٩هـ).

أنه قال له : « يا أمير المؤمنين . إن فعلت حملت الناس على نَسْكَثِ الأيمان ونقض العهود، وتجرا الناس على مثل ذلك » وفي سياق آخر قاله له : « لو لم يكن المهدي بايع هارون لوجب أن تباع أنت له لكلا تخرج الخلافة من بني أبيك »<sup>(١)</sup>، ورغم اقتناع الهادي بكلام وزيره يحيى فإنه كان شديد الرغبة في جعل البيعة لابنه لدرجة أنه زج يحيى البرمكي في السجن زماناً وهم بقتله .

وهارون الرشيد همّ بالاستجابة لأخيه الهادي في النزول عن حقه في الخلافة نظراً لضيق أخيه عليه، ولكن يحيى البرمكي نصحه في أن يستأذن أحاه في السفر طلباً للصيد، وبالفعل سافر وطال غيابه عند شاطئ الفرات في بلاد الأنبار وأخذ الهادي يطلب عودته ويوبخه على ذلك ولكنه ظل بعيداً عن قبضته حتى جاءه خبر نعيه .

هذا جانب من علاقة الهادي بأخيه الرشيد الذي كان فيما بعد فخر الخلافة العباسية . وهناك جانب آخر في علاقة الهادي بأمه الخيزران .

يحكى السعدي أن الهادي كان كثيراً الطاعة لأمه الخيزران مجيئاً لها فيما تسأل من حوائج الناس، وكانت أمه ذات شخصية قوية، إذ كانت تقابل وجوه الدولة، وتتدخل في إدارة الشؤون، وضاق الهادي بتدخلها، وبالإقبال الشديد من ذوى المطالب والحاجات لدى الدولة عليها، فواجهها برفض مطالبها ورَفَضَ تدخلها، فقامت مُغْضَبَةً من مجلسه، فقال لها : «مكانك فاستوعي كلامي : والله، وإلا نُفِتُ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى، أو من خاصتي، أو من خدمي، لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، لمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يُذَكِّرك، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي . فانصرفت وما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بجلو ولامرُّ بعدها»<sup>(٢)</sup> .

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ٤١/٢ .

(٢) مروج الذهب ٣٣٧/٣ - ٣٣٨ .

ويروى الطبري من أخباره أنه كان شديد القتل في الزنادقة<sup>(١)</sup> ويبدو لهذا وغيره وضوح السبب في وصفه لدى المؤرخين القدامى بقولهم : « كان موسى الهادي قاسي القلب شرس الأخلاق صعب المرام، كثير الأدب محباً له، وكان شديداً شجاعاً بطلاً، جواداً سخياً »<sup>(٢)</sup>.

أما صفاته القاسية فقد وقفتنا على جانب من أخباره توضّحها، وأما حبه للأدب فإنه رغم شدته وقوة بأسه كان من أمره أن الذي يحاكم بين يديه إذا كان ذا فطنة في الأدب وحب له وجد المخرج من العقوبة إلى حسن الصلة.

يروى أنه أحضر رجلاً وأخذ يذكره بذنوبه فقال له الرجل :

فإن كنت ترجو في العقوبة راحةً فلا تزهدن عند العفافة في لأجر فأطلقه ووصله<sup>(٣)</sup>.

وله مجالسات ومحاورات تدل على شدة رغبته في التعرف على جمال المدن والأماكن، منها محاورته عن محاسن مصر ومساوئها، وكذلك دنقله ببلاد السوية، والبصرة والكوفة<sup>(٤)</sup>.

ومما يروى من أخباره أن والده وهبه سيف عمرو بن معدى كرب، فلما ولى الهادي الخلافة جاء بالسيف وبمكيال مملوء بالدنانير، وقال لحاجبه ائذن للشعراء، فلما دخلوا طلب إليهم أن يقولوا في السيف فبدأ « ابن يامين البصري » فقال :

حاز صَمَصَامَةَ الزُّبَيْدِي عمرو	من جميع الأنام موسى الأمير
سيف عمرو، وكان فيها سمعنا	خير ما أعمدت عليه الجفون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً	ثم شابت فيه الدُعَاف المنون

(١) الطبري ١٠/٢٣.

(٢) مروج الذهب للمعري ٣/٣٣٥.

(٣) السابق ٣/٣٤٤.

(٤) مروج الذهب للمعري ٣/٣٣٩ - ٣٤٠.

وإذا ما شهَّرته تبهِّر الشمس م ضياءً فلم تكد تستين  
وكأنَّ القِرْنُد والجوهر الجا رى في صفحته ماءً معيْنُ  
ما يبالي إذا الضريبة حانت أشمال سطت به أم يمِين

فقال الهادى للشاعر لك السيف والمِكتل، فوزع المال على الشعراء، وقال  
لى فى السيف عوض، وبعث المهدي إلى الشاعر فاشترى منه السيف بثمانين  
الفا.

ويقول المسعودى (٣ - ٣٤٦): «وللهادى أخبار حان، وإن كانت أيامه  
قصرت، وقد أتينا على ذكرها فى كتابنا «أخبار الزمان، والأوسط»<sup>(١)</sup>».

٥ - هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ)<sup>(٢)</sup>:

يصفه البغدادي (٥/١٤) فيقول: «كان هارون أبيض طويلاً مُسَمَّناً  
جميلاً».

ويقول الفخرى ١٧٧/١ - «كانت دولته من أحسن الدول، وأكثرها وقاراً  
ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة. جى الرشيد معظم الدنيا.. ولم يجتمع  
على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء، والقضاة والكتاب،  
والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل  
صلة، ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار  
والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة».

فهذه النصوص وغيرها تكشف عن طبيعة ملكه فى القوة والسعة والإقتدار  
والتمكّن والحضارة والرفاهية. وفى الوقت ذاته توضح لنا أبعاد هذه الشخصية فى

(١) مروج الذهب للمسعودى ٣٣٤/٣ - ٣٤٦.

تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ٣٩/٢ - ٤٤. وحضارة الإسلام فى دار السلام تأليف جميل نخلة  
المدر ص ٨٧، ط ١٩٣٢ القاهرة.

(٢) راجع فى جملة أخباره: الطبرى ٢١/١٠ وما بعدها (عام ١٧٠هـ). وانظر: حضارة الإسلام فى  
دار السلام وجميل نخلة المدر، ص ٧٨ وما بعدها.

نواحٍ شتى من أهمها ما يتصل بالفكر والثقافة والأدب والفنون وشتى نروع الحضارة.

ومن يتعقب أخبار الرشيد على سمعتها وتعدد مناحيها. يلاحظ أنه رحل يبلغ الغاية في الجد واللهو، في النهوض بالنبعة وفي التمتع بالحياة، وتقابل هذين الطرفين في شخصية دليل ثرائها المثالي والمادى معاً، وبعبارة أخرى دليل خصوصيتها الخلافة لكل معطيات الحياة من حولها، وآية قدرتها على التكيف الذي هو مصدر ثرائها وينبع سلامتها النفسية والفكرية.

ومثل هذه الشخصية لا بد أن تتعدد جوانب العطاء في تاريخها، وتكثر مشكلاتها، ويتلون نشاطها، ومثلها يحرك التاريخ معه، وهكذا كان الرشيد، ولا عجب بعد ذلك أن يوصف بأنه: صاحب العصر الذهبي.

وهناك أمور في عصر الرشيد تلفت النظر وتستوجب التوقف عندها يكملها مصدر عطاءٍ للحياة الفكرية والأدبية لا سيما الشعر منها.

## ١ - تصديده للفتن والثورات وقضاؤه عليها :

في البداية نلاحظ أن الرشيد نقل مقر خلافته من (بغداد) إلى (الرقة) حتى يكون قريباً من حدود الدولة البيزنطية، وحتى تكون دمشق العلوية تحت ناظره.

وفي عهده جدد العلويون نشاطهم لاسترجاع الخلافة التي أخذها العباسيون بجهد العلويين وقتلاهم وأنصارهم، إذ تصدى للخروج على الرشيد يحيى ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان بيلاد الديلم وهناك اشتدت شوكته، وقد وجه الرشيد إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل وانتهى الأمر بقبول يحيى العلوى الصلح على شرط أن يكتب له الرشيد أماته بيده، وتحول الموقف إلى أن بحث الرشيد أمر هذا الأمان مع الفقهاء لنقضه

ورفض كبارهم نقض الأمان مثل محمد بن الحسن الشيباني، ولكن رجلاً يقال له «أبو البختری» أفى بنقض الأمان<sup>(١)</sup>.

ويقال أيضاً إن يحيى العلوي وهو في سجنه أقنع جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكي بالصفح عنه وإطلاق سراحه، وفعلها جعفر البرمكي ثقة في مكانته عند الرشيد ولكن هذه الفعلة كانت واحدة من أسباب فتك الرشيد بالبرامكة، وسوف يأتي بيانها<sup>(٢)</sup>.

وقضى الرشيد على ثورات البربر في أفريقية، وقضى كذلك على المنازعات للحادة والحروب الداخلية بسوريا بين اليمانيين والعدنانيين<sup>(٣)</sup>، وكذلك قضى الرشيد على ثورة الخوارج التي تزعمها الوليد بن طريف الشيباني الذي دخل إلى أرمينية وأذربيجان وعبر نهر دجلة والفرات فبعث إليه الرشيد بقواته التي قضت عليه وقتلته.

ولعل من أبرز المواقف السياسية والحربية موقفه مع البيزنطيين حيث اعتدى الروم على أراضي الدولة مخالفين معاهدتهم مع المهدي، وخرج الرشيد إليهم بنفسه سنة ١٨١ هـ - فانتصر وطلبت «أرضي» الصلح على أن تدفع الجزية، ثم خلعت هذه الملكة سنة ١٨٧ هـ، وتولى زمام الأمور بعدها وزير ماليتها (نقفور) ففسخ الصلح وكتب إلى الرشيد قائلاً: «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب. أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أمواليها ما كنت حقيقاً أن تحمل أضعافه إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل لك من أمواليها، واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، والا فالسيف بيننا وبينك»<sup>(٤)</sup>.

(١) راجع الطبري ٥٥/١٠ وما بعدها.

(٢) الطبري ٨١/١٠.

(٣) الطبري ٥٩/١٠ - ٦٠.

(٤) الطبري ٩٢/١٠.

« يقول ابن خلدون<sup>(١)</sup> فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه أو أن يخاطبه... ولم يقدر أحد من وزرائه على إبداء الرأي ثم تناول الكتاب وكتب على ظهره :

« بسم الله الرحمن الرحيم »، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام.»

وفي اليوم نفسه تاهب الرشيد للقتال وخرج على رأس جيش كبير، وفي (هرقلية) انتصر على جيش الروم انتصاراً ميبئاً واضطر (نقفور) أن يعقد الصلح وأن يدفع الجزية مضاعفة، ومرات كثيرة نقض (نقفور) العهد والصلح وانتصر عليه الرشيد في كل مرة، لدرجة أن المؤرخين يتقدون الرشيد في عدم مضيه إلى القضاء التام على الروم والاستيلاء على القسطنطينية عاصمة ملكهم<sup>(٢)</sup>.

ومما يروى في أمر «نقفور» أنه بعد الانتصار الأول عليه ومغادرة الرشيد وجنوده بلاد الروم نقض «نقفور» العهد، ظناً منه أن برودة الجو وشدة الصقيع لن تمكن الرشيد من الرجوع بجنده لمحارته مرة ثانية، وقد أبلغ المشولون في جند الرشيد الخبر إليه عن طريق واحد من الشعراء في جنده هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، ويقال هو الحجاج بن يوسف التميمي.

فلما فرغ من إنشاده بين يدي الرشيد قال : «أوقد فعل نقفور ذلك؟ وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكّر رجماً في أشد عنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد»<sup>(٣)</sup>.

أما الشعر الذي قيل بين يدي الرشيد لإبلاغه خبر رجوع نقفور فنه :

نقضَ الذي أعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور

(١) ابن خلدون فيما قاله يقل عن الطبري ٩٢/١٠.

(٢) راجع فيما تقدم النولة العباسية ص ٧٤ - ٧٧ حسن خليفة ط ١. وانظر في المادة التاريخية

للموضوع الطبري ٩٢/١٠.

(٣) الطبري ٩٢/١٠ - ٩٣.

أبشر أمير المؤمنين فإنه  
فلقد تابشرت الرعية أن أتى  
ورجت يمينك أن تعجل غزوة  
أعطاك جزيتَه وطاطأ خده  
فأجزته من وقعها وكأثما  
وصرفت بالطول العساكر قافلا  
نقفور إنك حين تغدر أن نأى  
إن الإمام على اقتسارك قادر  
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً  
ملك تجرد للجهاد بنفسه  
نصح الإمام على الأنام فريضة  
وعندما عاد الرشيد وأذل نقفور قال أبو العتاهية :

ألا نادت هرقلة بالخراب  
غدا هارون يرعد بالمنايا  
وريات يحمل النصر فيها  
أمير المؤمنين ظفرت فاسم  
من الملك الموفق بالصواب  
ويبرق بالمذكّره القضاة<sup>(١)</sup>  
تمر كأنها قطع السحاب  
وأبشر بالغنيمة والإياب<sup>(٢)</sup>

### البرامكة في عهد الرشيد :

للبرامكة قصة أشبه بالروايات المثيرة منها بالحقائق الواقعة، وهى أدخل ما تكون في خيال الروائيين الذين يعتمدون في تشويقهم على الإثارة والمفارقة : في الأحداث وشطحات الخيال، في التسلية والترفيه والعظة والاعتبار. ومع ذلك فقد كان البرامكة واقعا تاريخيا عميقا وعريضا مؤثرا ونفاذا، وهذا الواقع جمع الطرفين المتباعدين في الحياة وهما : لمة المهجد والسودد، وهاوية التشريد والضياع ؛

(١) الطبى ٩٢/١٠ - ٩٣.

(٢) المذكر: السيف ذو الرنق، والقضاة، والقضاة: من السيوف القطاع.

(٣) الطبى: ٩٣/١٠.

إلى حد القتل والمصادرة دون وجود مساحة زمنية تسمح بالانحدار من قمة المجد إلى قاع الهاوية.

«وصدق الفخرى إذا يقول: إن دولة البرامكة كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشُدَّت إليها الرِّحال ونيطت بها الأمال، ونذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفر إسعادها، فكان يجيى وينوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة ظاهرة، وهم ملجأ اللّهيْف، ومُعْتَصِم الطريد، ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما قُدمتم  
بني برمك من راتحين وغاد<sup>(١)</sup>

والبرامكة أسرة فارسية من مجوس بلخ، وكان جدها الأكبر يسمى «برمك» ويقال إن لفظه برمك ليست اسماً لشخص «وإنما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهان بمعبد «نوبهار» ببلخ، وكانت البرامكة تملك الأراضي التابعة للمعبد ويبلغ طولها ثمانية فراسخ، وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعمائة ميل مربع، ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية، ويقول ياقوت: إن قرية «روان» - الكبيرة الغنية - وهى شرق بلخ كانت في حوزة يحيى بن خالد<sup>(٢)</sup>.

ويعقد المؤرخون وجهاً للشبه بين برمك، وبين قُصَى وأولاده من بعده فالأولون كانوا سدنة لنار في معبدهم، وقُصَى وأبناؤه كانوا سدنة الكعبة في الجاهلية. وكان هذا تاريخ البرامكة إلى أوائل القرن الثاني للهجرة، ولما دخل الإسلام بلاد فارس أسلم بنو برمك، وحينما ظهرت الدعوة للعباسيين بخراسان كان خالد بن برمك من أكبر أنصارها، وكان أكبر إخواته، ولما استقر أمر

(١) راجع عصر المأمون المجلد الأول ص ١٣٥ - ١٣٦ د. أحمد فريد الرفاعي ط ١٩٢٧.

(٢) السابق ص ١٣٦.

الخلافة في عهد السفاح تقلد خالد الوزارة بعد مقتل ابن سلمة الخلال، ثم عينه المنصور ولياً على فارس ثم الموصل، وكان والياً قديراً، طيب السيرة، حسن التقدير، ومات في خلافة المهدي، وكان قد أنجب ولده «يحيى» ورياه أفضل وأحسن تربية، وقد اختاره المهدي ليكون مربيّاً لابنه هارون فأحسن القيام بمهمته، وكان شديد الإخلاص لأميره، وعندما فكر الهادي في خلع أخيه هارون من ولاية العهد كان يحيى البرمكي يعالج الأمر بحكمة مع الهادي حتى تعرض لغضب الهادي وكاد يفتك به.

وعندما تولى هارون الرشيد الخلافة أسند إليه الوزارة وفوضه تفويضاً كاملاً في تصريف شئون الدولة. يقول المسعودي «لما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا يحيى بن خالد فقال له يا أبت: أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمتك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر ودفعت إليه خاتمته»<sup>(١)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن يحيى البرمكي يُعدّ والدًا في الرضاة للرشيد لأن الفضل بن يحيى ولد قبل الرشيد بسبعة أيام فأرضعت أمه (وهي زينب بنت منير) الرشيد، وكذلك أرضعت والدة الرشيد «الخيزران» الفضل بلبان الرشيد»<sup>(٢)</sup>.

وكان ليحيى بن خالد البرمكي خمسة أولاد هم: الفضل، وجعفر، وموسى، وخالد، ومحمد. وكانوا جميعاً من ذوى المكانة والرياسة في حكم الرشيد، وقد استحق بنو جعفر الثناء والمدح بخصالهم المحمودة وفعالهم الطيبة، وقد كانوا موثلاً ذوى الحاجات ومقصد الشعراء والأدباء.

ولما ولد للرشيد الأمين عهد إلى الفضل بن يحيى بتربيته، وكان الفضل عضد أبيه وسنده، وكان يتوب عنه في كبريات الأعمال وجلائل الأمور.

أما جعفر بن يحيى فقد كان الرشيد يحبه ويأسس إليه ويؤثره على أخيه

(١) مروج الذهب ٣٤٨/٩.

(٢) الطبرى ٤٨/١٠.

الفضل لسهولة أخلاقه، وكان فصيحاً بليغاً ذا فطنة مشهوراً بالحلم والكرم. وكان شديد الصلة بالرشيد منادماً له<sup>(١)</sup> وقد قلده الرشيد مناصب ومسئوليات ليرفع من شأنه وذكره في دولته<sup>(٢)</sup> وولاه وأبقاه إلى جانبه وعهد إليه بتربية ولده المأمون<sup>(٣)</sup>.

ثم حدث أن تنازل يحيى عن منصب الوزارة لابنه الفضل ولكن الرشيد طلب إلى يحيى أن يطلب من الفضل التنازل عنها لأخيه جعفر فكتب يحيى إلى الفضل: «قد أمر أمير المؤمنين - أعلى الله أمره - أن تحوّل الخاتم من يمينك إلى شمالك. فأجابه الفضل: قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين في أخى. وما انتقلت منى نعمة صارت إليه، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه. فقال جعفر: لله درّ أخى ما أكيس نفسه، وأظهر دلائل الفضل عليه، وأقوى منة العقل عنده، وأوسع في البلاغة ذرعه»<sup>(٤)</sup>.

ومع ذلك كله فقد كان هؤلاء الأبناء الصفوة - الذين تعتمد عليهم الخلافة في كثير من شؤون الحكم والإدارة - في مزاجهم العام والخاص يمثلون عصرهم، يروى لنا المسعودى رواية لها دلالاتها المختلفة على طبيعة هذا المزاج وطبيعة القواعد العامة التي تحكمه. يقول: «يحكى أنه ورد على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان، ويحيى ابن خالد بين يديه، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحى، وقال له: يا أبت اقرأ هذا الكتاب، واكتب إليه كتاباً يردعه عن مثل هذا، فمد يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يا بني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين - ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية - ما أنكروه، فعاود ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو

(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ٥٠/٢.

(٢) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ٥٠/٢ - ٥٢.

(٣) الدولة العباسية حسن خليفة ص ٦٨.

(٤) الطبرى ١٠/١.

ما يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام. وكتب في أسفله هذه الأبيات:

واصبر على فقد لقاء الحبيب	أنصب نهاراً في طلاب العلا
واسترت فيه وجوه العيوب	حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً
فإنما الليلُ نهار الأريب	فبادر الليلَ بما تشهى
يستقبل الليل بأمر عجيب	كم من فتى نحسبه ناسكاً
فبات في لهرٍ وعيش خصيب	ألقي عليه الليلُ أسناره
يسمى بها كل عدو ورفيق	ولذة الأحق مكشوفة

والرشيد ينظر إلى ما يكتب يحى فلما فرغ قال له أبلغت يا أبت فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف عن عمله<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان رجال الدولة يخطون ويصوون، ويبادرون إلى الرجوع إلى الصواب إرضاءً للصورة السياسية في نظر الراعي والرعية وليس تحويلاً للطبائع عما جلبت عليه.

### نكبة البرامكة:

إن حديث البرامكة في عهد الرشيد حديث يطول ويشوق وتشعب فيه النفس لهفة والفكر حيرة؛ ذلك أن أخبار حبهم للرشيد وحبه لهم، وتفانيهم في القيام بخدمته وإسرافه في تكريمهم والثقة بهم، كلها ضرب من الخيال والقصص الشيق، الذي تتحول معه الأخبار إلى حكايات مسعدة يندر مثلها في تاريخ العلاقات الإنسانية في بلاط خليفة مهيب وخلافة واسعة.

ونفس القدر من الغرابة والندرة التي تتسم به هذه العلاقة في الصداقة يتسم به - بل ربما أكثر - بطش الرشيد بهم ببطشاً يحير الفهم، ويحبس الأنفاس دهشة وحسرة وأسى، ومثل هذه الكارثة ذات المفارقة الهائلة بين طرفي الحب والبطش تجعل من الصعب التحليل والفهم والاعتناع.

(١) مروج الذهب ٢٧٧/٣ - ٤٧٨.

ونظراً لأن هذه ليست مبحثاً رئيساً عندنا بل تمهناً في دلالتها على طبيعة نوع الحكم، وطبيعة العلاقات الانسانية، وطبيعة الحوادث ذات التأثيرات الكبرى في تكوين الأفكار والأمزجة وأنواع السلوك العام والخاص لدى الأفراد والجماعات، لأنها في النهاية تلعب دوراً في تشكيل السلوك والوجدان واتجاه الفكر وتحليل الحوادث والتعايش معها لدى الأدبا والمفكرين في تلك الفترة لئى ندرس أديها.

لهذا كله سوف نوجز في تركيز الأسباب التي قيلت في تفسير نكبة البرامكة وسوف نناقشها بما يبدو لنا :

وفي البداية نحتاج إلى ذلك النص من المسعودى الذى يقول فيه : « وكن مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وقد رثتهم الشعراء بمراث كثيرة<sup>(١)</sup> .

إن هذه المدة الطويلة من تمتعهم بثقة الرشيد وحببه لهم لا سيما جعفر وأبوه يحيى. كل ذلك يجعل النظر فى الأسباب وتحليلها وقبولها ليس أمراً سهلاً.

والعجب هنا أنه يحسن بنا قبل عرض الأسباب وتحليلها أن ندرك فداحة نكبة البرامكة، ويتم ذلك إلى إذا قرأنا روايات المؤرخين عن أمر الرشيد بقتل جعفر البرمكى أحب آل برمك إليه. ومن الصورة التي تم بها القتل ندرك فداحة النكبة وعمق الفاجعة، وحبيرة الفهم ومشقة التفسير.

يذكر المؤرخون أن الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ وانصرف عن مكة فدخل الحيرة فى المحرم من سنة ١٨٧ هـ، ثم ذهب إلى الأنبار « فلما كان اليوم الذى عزم على قتل جعفر دعا بالسندى بن شاهك، فأمره بالمضى إلى مدينة السلام والتوكل بدور البرامكة، ودور كتابهم، وأبنائهم، وأقربائهم، وأن يجعل ذلك

(١) مروج الذهب ٣/٣٨٩.

سراً من حيث لا يكلم به أحداً حتى يصل إلى بغداد... فامتثل السندي ذلك. وقعد الرشيد وجعفر عنده... فأقاما يومها بأحسن هيئة وأطيب عيش، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له، ثم رجع الرشيد فجلس على كرسي وأمر بما كان بين يديه فرفع، ومضى جعفر إلى منزله وفيه فضلة من الشراب، ودعا بأبي زكار المغني الطنبوري، وابن أبي شيح كاتبه، ومدت ستارة، وجلست جواربه خلفها يضرين ويعنين وأبو زكار يغنيه :

ما يريدُ الناسُ منّا ما ينأمُ الناسُ عنّا  
إنما همُّهمُ أن يُظهروا ما قد دفنّا<sup>(١)</sup>

هذا هو المشهد الأخير في علاقة الرشيد بجعفر البرمكي في قصة صداقتها وحبها الأخوي الذائع الصيت.

ولكن الرشيد تركناه يجلس على كرسيه بعد خروج جعفر من عنده وفي هذه الجلسة أمر « برفع ما كان بين يديه من أدوات الطرب والأنس ثم أمر الرشيد من ساعته ياسرا خادمه<sup>(٢)</sup>... فقال له : إن أندك لأمر ما أرى محمداً ولا القاسم له أهلاً ولا موضعاً، ورأيتك به مستقلاً ناهضاً، فحقق ظني واحذر أن تخالف أمرى... فقال يا أمير المؤمنين : لو أمرتني : أن أدخل السيف في بطني وأخرجه من ظهري بين يديك لفعلت، ففرق بأمرك فإن والله مسرع. فقال : أأنت تعرف جعفر بن يحيى البرمكي. ألم ترى تشييعي إياه عند خروجه؟ قال : بلى، قال فامض الساعة إليه فأنتي برأسه على أى حالة تجده عليها. فارتج على ياسر الكلام وأخذته رعدة ووقف لا يحير جواباً. فقال يا ياسر ألم أتقدم إليك بترك الخلاف على. قال بلى يا أمير المؤمنين، ولكن الخطب أجل من ذلك... قال : دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك فمضى ياسر حتى دخل على جعفر وهو على حال هوه، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرن فيك بكيك وكيك، فقال جعفر : إن أمير المؤمنين يمازحني بأصناف من

(١) مروج الذهب للمتعودى ٣/٣٨٧.

(٢) في رواية الطبري اسمه «سرور» ١٠/٨٤، واسمه هكذا شاع في الحكايات الشعبية.

المزاح... فقال والله ما رأيتك إلا جادًا. قال فإن يكن الأمر كما قلت فهو إذن سكران. قال: لا والله... قال: فإن لى عليك حقوقًا لم تجد لها مكافأة في وقت من الأوقات إلا هذا الوقت. قال تجدى إلى ذلك سريعًا إلا فيما خالف أمير المؤمنين. قال: فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادمًا كانت حياتى على يديك جارية، وكانت لك عندى نعمة مجددة، وإن أصبح على مثل هذا الرأى نفذت ما أمرت به فى غد. قال: ليس لى إلى ذلك سبيل... قال: فأصبر معك إلى مضرب أمير المؤمنين حتى أوقف بحيث أسمع كلامه ومراجعتك إياك، فإذا أبديت عذرًا ولم يقنع إلا بمصيرك إليه برأسى خرجت فأخذت رأسى من قرب. قال له: أما هذا فتعم، فضيا جميعًا إلى مضرب الرشيد فدخل إليه ياسر فقال: اثنى به وإلا قتلتك قبله. فخرج إليه فقال له: أسمعت الكلام؟ قال فشأنك وما أمرت به. فأخرج جعفر من كفه منديلًا صغيرًا فعصب به عينيه ومد رقبته فضرها ياسر، وأدخل رأسه إلى الرشيد، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه، وجعل يذكره بذنوبه. ثم قال يا ياسر اثنى بفلان وىفلان، فلما أتى بهم قال لهم: أضربوا عنق ياسر فإن لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر<sup>(١)</sup>.

إن الفاجعة كما وضحناها - فى نقل جملة طويلة من نصوص رواها ومؤرخيها - تجعلنا أمام مشهد درامى تسيطر عليه المفاجآت التى لا تحمل حيثياتها وكأنها عمل درامى من المأسى التاريخية السابجة فى بحار الخيلات الجامحة لعدم منطقية الأحداث بفقدان التداعى بين الأسباب والنتائج، إنما المشهد كله مزاج أمير انقلب إلى النقيض فى لحظة، وهذا الانقلاب المفاجيء عصف بعلاقات وثيقة ودودة تمتد طولاً وعمقاً بطول سبعة عشر عامًا حافلة فى سلاط مُلك مقتدر زاخر بالحوادث والحياة معًا.

لكل هذا يصبح البحث عن الأسباب وقبولها أمرًا فى غاية الصعوبة، ومع

(١) راجع فى النصوص للنقولة: مروج الذهب للمسعودى ٣/٣٨٧ - ٣٧٩. وراجع الطبرى، وهو

أقل تفصيلا فى ذكر الخبر ١٠/٨٤ - ٨٥.

ذلك سنحاول عرضها والتعليق عليها ويبقى في نفس الدارس شيء من قبولها ما دام يثق في عقلية الرشيد وتاريخه، اللهم إلا أن يكون هناك ما أهمله التاريخ، لأن ما روى وسجل لم يكن مباحًا في ظل الدولة الحاكمة والحدث المروّع، ومثل ذلك فحين بأن يحجر على التاريخ، ويطمس كثيرًا أو قليلاً من حقائقه المتصلة بالأسباب الشخصية أو السياسية، ومع ذلك كله فإننا نحضى إلى عرض ومناقشة ما وصل إلينا من أسباب :

### أولاً: زواج جعفر من العباسة<sup>(١)</sup> :

يحكى المؤرخون حكاية عن زواج جعفر البرمكى بالعباسة أخت الرشيد ملخصها :

أن الرشيد قال لجعفر يوماً: ويحك يا جعفر إنه ليس في الأرض طلعة أنس بها، أو أميل إليها وأنا بها أشد ما أكون استمتاعاً وأنساً منك. وإن للعباسة أختي منى موقفاً ليس دون ذلك، وقد نظرت في أمركما معا فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها وكذلك حكى منها يوم أكون معك. وقد رأيت مخرجاً لذلك وهو أن أزوجهها لك تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها ولا تحدث بينكما خلوة البتة. وإنما حضور كما فقط في مجلسي، وأخذ على جعفر الموائيق والأيمان، وكان جعفر يحضر مجلس الرشيد بحضور العباسة وهو صارف بصره عنها، مزورٌ بوجهه هيبه لأمير المؤمنين، ووفاءً بعهده وأيمانه وموائيقه.

ثم تقول الروايات بأن العباسة احتالت عن طريق أم جعفر وجعلته يدخل بها، ويقال إنها حملت منه وأنجبت ووجهت ولدها مع خادم وحاضته إلى مكة.

ويقال إن زبيدة زوجة الرشيد اختلفت مع يحيى البرمكى والد خالد فأذاعت سر العباسة لتنتقم من والد جعفر. وبذلك أمر الرشيد بقتل جعفر فجأة. على النحو الذي سبق عرضه وتوضيحه.

(١) راجع في تفاصيلها : مروج الذهب للمسعودي ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٦ والطبرى ١٠/ ٨٥ - ٨٦.

ولكن قصة العباسة تبدو لي وعليها اعتراضات كثيرة، وابن خلدون نفسه أسقطها من حسابه. أما الاعتراضات التي أراها فهذا موجزها:

\* إن الرجال الكبار لا سيما الخلفاء ومن في مستواهم من أهل الجلد والحزم لا يتعلقون بالنساء الأخوات بل الأمهات كهذا الذي ذكرته لنا الروايات من تعلق الرشيد بأخته العباسة، وليس ذلك متوارثاً في التربية العربية، ولا هو من سماتها النفسية، بل لعله يعارض مقاييسها الأخلاقية في سيطرة الرجولة وغلبتها، وإنما الشائع المقرر في كرامة الرجال الإعزاز والرعاية والحماية للأخوات ومن في منزلتهن. أما أن تتطور المسألة إلى أن الرشيد لا يصبر على فراق أخته، وكذلك لا يصبر على فراق مؤانسِه جعفر؛ فيجمع بينهما على النحو الذي سبقت روايته فبعيد القبول، وهو من نسج الحكايات والإشاعات التي تلبس الأحداث الكبيرة في مجتمع لا تُعرف فيه الحقيقة الكاملة

\* ثم كيف حملت العباسة من زوجها جعفر في الخفاء لدرجة أنها نجت مولودها ثم أخفته مع حاضنة وخدام في مكة؟! ألم تقل الرواية نفسها إن الرشيد لم يكن يطيق البعد عن مجلسها فكيف غابت عنه في أشهر الحمل الأخيرة، بل الأولى، وأيام وضع المولود؟ إن هذه أموراً ليس من السهل قبورها في ظل العلاقة التي صورتها القصة، اللهم إلا أن نكون ألعينا عقولنا على نحو ساذج، ولو أن القصة وقفت عند القول بأنه علم أن جعفرًا قد دخل بها لكان فيها ملابسة ما للتصديق، ومع ذلك يبقى أمامها اعتراض ضخم، وهو قبول فكرة أن الرشيد عقد بينها زواجاً على ذلك النحو الساذج. لتلك الأسباب غير المنطقية كما ورد في القصة. وبيق فرض أخير وهو أن يكون - فر قد تزوجها دون علم الرشيد وهو أمر بعيد القبول إلى حد الاستحالة، فهية الرشيد بعمق العلاقة بينه وبين جعفر وآل برمك وشدة إخلاص هذه الأسرة وتفانيها في خدمة ملكه، وشخصية العباسة المعتزة الشائخة في بيت الخلافة سليل بيت هاشم النبوي كلها تجعل هذا الفرض غير صالح للعرض.

## ثانياً: عطف البرامكة على العلويين :

كما سبق درسه في التطور التاريخي ندرك تماماً أنه لا بد للعباسيين من معاذرة العلويين، بل القضاء على كل ريبة تبدو منهم، فلما الظن وقد ظهر في الميدان السياسي حزب علوي يعتمد على السيف في استرداد حقه في الخلافة. وهذه قصة ليس مجالها كتب الدراسات الأدبية<sup>(١)</sup>.

أما الموقف المحدد بالنسبة لجعفر فهو خاص بإطلاقه - يحيى بن عبد الله بن حسن ابن حسن بن علي بن أبي طالب من عبه وهو علوي طالب للخلافة من آل العباس.

يحدثنا الطبري فيقول: «ذكر أبو محمد الزيدي وكان فيما قبل من أعلم الناس بأخبار القوم قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به<sup>(٢)</sup>، فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال (يحيى لجعفر) اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم.. فرد عليه (جعفر) وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل... فوجه (جعفر) معه من أتاه إلى مأمنه، وبلغ الخبير الفضل بن ربيع... فدخل على الرشيد فأخبره. فأراه (الرشيد) أنه لا يعاباً بجزره، وقال: وما أنت وهذا لا أم لك. فلعل ذلك عن أمري، فانكف الفضل، وجاء جعفر فدعا (الرشيد) بالغداء فأكلا وجعل (الرشيد) يلقمه ويمحاه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قسال (الرشيد): ما فعل يحيى بن عبد الله. قال (جعفر) بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس والضيق والأكبال، قال (الرشيد): بحيات. فأحجم جعفر وكان من أدق خلق

(١) انظر الباب الثامن من كتاب تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم وعمل الأخص ١٠٧/٤ - ١٧٠.

(٢) المعنى في السياق أن جعفر البرمكي دعا يحيى بن حسن العلوي رساله.

الله ذهنًا وأضحهم فكرًا، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلفته وعلمت أنه لا حياة به، ولا مكروه عنده. قال (الرشيد): نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان»<sup>١</sup>.

واضح إذن من رواية الطبري أن الرشيد شك في إخلاص البرامكة في الحفاظ على عرش الخلافة للعباسيين؛ ذلك أن هوة الخلاف بين العلويين والعباسيين محورها أخذ الخلافة وانتزاعها من العباسيين، وحوادث العلويين ومحاولاتهم في ذلك كثيرة متنوعة، وحسم العباسيين أمامها حسم لا هوادة فيه، وذلك صراع الملك في كل زمان ومكان لا غفلة فيه أو مهادنة لمتمكن قادر.

وهذا الشك من الرشيد شك يمكن قبوله، وتخوف يعذر فيه، ولكن جعفرًا حينما تصرف وأطلق سراح يحيى كانت له وجهة نظر محورها أن يجيى العلوى لا خشية منه على الدولة وهى فى قمة قوتها وتمكنها، والحب والثقة التى تتمتع بها عند الرشيد تجعله فى حل من التصرف فى سياسة الدولة ما دام التصرف داخل الإطار المحدد الذى رسمه الرشيد للسياسة العامة والخاصة، ولكن الرشيد عندما يأمر بجيى خصم سياسى ينازعه الخلافة ولا شىء غيرها ثم يُفْرَج عنه دون علمه، بل إن الرشيد عندما سأل جعفرًا أجابه بأنه فى عجبسه وكان قد أطلقه، فهذا يعنى أن جعفرًا يدرك أن الرشيد يغضبه ويؤله أن يكون قد أفرج عنه، لا سيما وأنه أفرج بغير علمه ومخالف لسابق أمره، ولما استحلف الرشيد بجياته جعفرًا، أدرك جعفر خطورة الموقف فأخبره بالحقيقة كاملة وهى أنه أطلقه لأنه لا خطر منه، فاتخذ الرشيد قراره فى نفسه كرجل دولة يدفع عن نفسه وعن ملكه بقتل جعفر بأسلوب الفجاءة والمباغنة.

✽ إلى هنا يمكن قبول تفسير الحوادث التى أدت إلى مقتل جعفر؛ ولكن الأمر الذى يصعب قبوله هو شك الرشيد فى إخلاص جعفر وآل برمك، لأن

البرامكة كانوا سدنة الملك وحماته ووزراءه، وقواده. وتصرفاتهم لا بد أن تكون حماية هذا البيت بمقدار حمايتهم لأنفسهم ودفاعهم عن منزلتهم، أما أن يفسر الموقف على أنه خيانة، أو شروع فيها، أو حدس بها، فذلك كله غير مقبول، لأن جميع الظروف التي تربط آل برمك بالخلافة العباسية ولا سيما الرشيد ترفض ذلك بشدة.

\* والأمر الذي يصعب قبوله أيضاً هو قدرة الرشيد فجأة على قتل هذا الحب الكبير وتلك الصداقة العميقة التي تتمثل في علاقته بجمضر وهي إن صحت توضح بعداً نفسياً وعقلياً وشعورياً في شخصية الرشيد ليس من السهل قبوله، خاصة وأنه سجن وصادر آل برمك في أنحاء ملكه عدا نفر محدود، منهم أبناء محمد بن يحيى البرمكي، وقد سجن أباهم يحيى بن خالد إلى أن مات في سجنه وضرب بالسياط وهو الذي كان يناديه الرشيد بقوله: يا أبت<sup>(١)</sup>..

\* إن قبول ضخامة النكبة يدل بغير شك على ضخامة السبب، لأن آلام الرشيد العظيمة هي التي تقاوم حبه الكبير. وهذا السبب الذي معنا هنا يحتاج إلى جملة أسباب أخرى تسانده حتى نقبل ضخامة النكبة في آل برمك، وفي حب الرشيد لهم وثقته بهم، خاصة وأنا عندما نقرأ تاريخهم لا نملك غير التصديق المطلق في تفانيهم في حب الرشيد والقيام على شئون ملكه بإخلاص وإيمان ولكن يبق بعد ذلك لسياسة الأعيب وأفانين تغيب عن تحليل المنطق ورصد التطور الدقيق لضيع ومسح الأسباب الحقيقية في كثير من حوادث التاريخ.

### ثالثاً: اتساع سلطان البرامكة في الدولة:

إن كتب التاريخ لا سيما الطبرى والمسعودى تفيض بأخبار البرامكة في تسيير

(١) راجع الطبرى ٨١/١٠ - ٨٢، ومرجع الذهب ٣٩٣/٣ - ٣٩٤.

أمور الدولة، وفي الثراء الذي لحقهم وفي سعة كرمهم وشدة عطائهم. وفي قصد الناس أبوابهم ومدح الشعراء لهم.

فعلوا المكانة وعظم الجاه وسعة الثراء، واتجاه الناس بالحاجة إليهم من شأنه أن يثير عليهم ألواناً من الحقد، ويشيع حولهم الأقاويل، ولا شك أن لهم في بلاط الرشيد ورعيته من ينفس عليهم، وإذا كان الرشيد يرفض ويدفع الأقاويل نتيجة حبه لهم وثقته فيهم واعتماده عليهم، فإن الأسباب المباشرة التي أثارته عليهم لا بد أنه قد أضيف إليها رصيد قديم من الوشائيات والأحقاد ضدهم، فاجتمع إلى السبب المثير أسباب كامنة أخرى وجدت فرصتها للخروج وإشعال النيران ضدهم في نفس الرشيد.

وهذا العلامة ابن خلدون يقول في أسباب نكبة البرامكة: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجائهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب السير من المال فلا يصل إليه<sup>(١)</sup> فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء ممن ولدهم وصناعتهم، واحتازوها عن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجاية وسيف وقلم... ونسبط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتختط إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القبايلة العطاء وطوقوهم المن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المدموم وفكوا العاقب، ومُدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، واستولوا على القرى والضباع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغضبوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم

(١) هذه المقولة ليس من السهل قبولها أو تصديقها لأن ذلك البرامكة وحرصهم على تعميم إعلانهم بالرشيد وحرصهم على استبقاء مكانتهم في ملكه، ما كانت تسمح لهم بمثل هذه التخلطة الساذجة في علاقتهم بالرشيد.

الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبه أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم<sup>(١)</sup>.

\* إن هذه الأسباب من الممكن تصور أنها الخلفية التي ضمها الرشيد إلى السبب المثير الذي هاجه ضدهم.

\* ولكننا إذا وقفنا أمام هذا الحشد الكبير من الأسباب فإن إخلاص آل برمك وتفانيهم في خدمة الرشيد، وسيادة الدولة في الداخل والخارج في عهده كانت شفيحاً وسبباً كافياً لإطلاق أيديهم، لأنها مطلقة به ومن أجل أبهة ملكه، وليس من السهل قبول الوشاية فيهم لعظيم إخلاصهم وشدة تفانيهم.

\* وما يدل على نقاء سريرة جعفر البرمكي وآله تجاه الرشيد عدم نهوض جعفر إلى التخلص من سيف الرشيد «مرور أو ياسر على الخلاف في اسمه» لأنه لو كان جعفر يدبر أمراً ضد الخلافة لتحرك على الفور في مواجهة السيف الذي جاءه في عقر داره يخبره بأن الرشيد يطلب رأسه فوراً.

\* ويبدو لي أنه لو تصرف جعفر وقتل السيف على الفور، ثم أنهى الأمر إلى الخليفة على أن هذا السيف جُنُّ وأراد قتل باسمك، فقتلته لتهوره وجنونه، لتغير الموقف حتى عند الرشيد، لأنه كان يهون عليه قتل مرور السيف، ولا يهون عليه قتل جعفر بدليل أنه بعد أن دخل عليه مرور برأس جعفر أرسله هو نفسه في طلب أفراد آخرين فلما دخلوا عليه أمرهم بقتل مرور قائلاً: إنه لا يطيق أن يرى قاتل جعفر أمامه. ثم أليس هو الذي رد الفضل بن الربيع ردّاً يكسر خاطره ويسفه وشايته عندما جاء إليه بخبر إطلاق جعفر ليحيى العلوي حيث قال له الرشيد كما سبق نقله عن الطبري: ما أنت وهذا؟! لا أم لك، فلعل ذلك عن أمرى! فانكسر الفضل، لإجابته عليه.

\* نقول كان في إمكان جعفر أن يتصرف أمام الموقف ولكن الروايات تصوره حتى وهو على بعد خطوات من الرشيد وسمع صوته يستسلم للسيف

(١) القلمة ص ١٣ ط أولى، وراجع ضحى الإسلام أحمد أمين ٤٤/١ ط أولى.

ويعصب عينيه بمندبل صغير ويمد رقبته لتقطع، هل هذا أسلوب رجل يمكن أن يتهم في ولائه ويمكن أن يخشى منه على الملك والخلافة؟! وهل هذا أسلوب يتفق مع ذكاء جعفر وحكته؟!

ومع كل ذلك فالحياة رواية مهما عثرت فيها على منطق الأحداث فمن المنطق نفسه تجاوز المنطق معها، وفي ضوء هذه الحقيقة المحيرة في فهم الحياة يمكن أن نطرح تفسيراً حول علاقة الرشيد الوثيقة بالبرمك وهي أنها علاقة أمليتها ظروف الرشيد عند توليه الخلافة، ذلك أن أخاه الهادي كان يعمل على حرمانه من ولاية العهد بعده على نحو ما بيننا ذلك عند الكلام عن موسى الهادي. وأول رجل وقف يقنع الهادي بالعدول عن ذلك هو يحيى بن خالد البرمكي وخبسته بسبب ذلك موسى الهادي وكاد أن يقتله، وهو نفسه الذي رسم هارون الرشيد خطة البعد عن أخيه الهادي حتى لا يرغمه عن التنازل عن ولاية الخلافة بعده، فلما مات الهادي كان يحيى البرمكي هو الذي أرسل إلى هارون ليحضر لتولي الخلافة، ولما كان الرشيد والياً على بلاد المغرب ساعده يحيى على النهوض بأعبائها، فإخلاص يحيى البرمكي لهارون وتحمله العناء والشدة في سبيله أمر سابق لتولي هارون الرشيد الخلافة، هذا بالإضافة إلى أنه مربيه ومعلمه منذ صغره.

لذلك عندما تولى هارون الرشيد الخلافة قلّد يحيى البرمكي الوزارة وفوّض إليه أمور دولته، واستعان بأولاده الأربعة على النحو الذي سبق بيانه.

ولهذا يمكن القول بأن الرشيد أسند إليهم أمر الدولة بحكم الظروف التي وضعت هذا الموضع منهم، ولم يكن في موقف يختار فيه وينظم توزيع المسؤوليات على جهات متعددة حتى لا يكون في حكمه ما نسميه اليوم بمراكز القوى. فلما زُين له حاسدوهم شدة خطرهم في الدولة وجاءه سبب مثير إلى جانب أسباب أخرى كانت تلعب دورها وتباشر فعلها في نفسه دبر للانقلاب عليهم.

\* وفي هذا السياق نشير بعناية إلى دور الفضل بن الربيع الذي كان دائب السعي في تشكيك الرشيد في البرامكة، لا يبدأ ولا يتورع، وموقف

جعفر البرمكى عندما أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوى استغله الفضل بن الربيع ببراعة ضد جعفر وآل برمك، يضاف إلى ذلك ما ترويه الروايات من أن الفضل بن يحيى أثناء حكمه القصير في خراسان جند جيشاً ضخماً تعداده نصف مليون وسماه «العباسة» ولما عاد إلى بغداد أحضر معه عشرين ألفاً من ذلك الجيش ليقبضوا معه في بغداد<sup>(١)</sup> ولا شك أن مثل هذه الأمور تُشكّل فرصة ذهبية لانتشار مكائد خصومهم ضدهم وفي مقدمتهم الفضل بن الربيع.

\* وعلى كل حال هو افتراض غير مرفوض في أسلوب الحكم والسياسة، لا سيما مع وجود قوى أخرى متربصة بالبرامكة، والتاريخ يشير بنقص المادة التي عرضها والأسباب التي وضحتها إلى أن في أعماقه ما هو مجهول في حقيقة هذه القضية وحوادثها البشعة، ومفارقاتها المذهلة.

وبعد فتلك صورة لطبيعة الحكم في ظل الخلافة والخلفاء العباسيين ولسنا بعد هذا العرض في حاجة إلى المزيد من الحديث عن الخلافة والخلفاء فالمؤمن وهو أبرز الخلفاء بعد موت أبيه لا يبعد كثيراً في مغزاه عن أسلوب أبيه الرشيد. ولدينا الآن كل عوامل القوة وأسباب التقدم والازدهار في الدولة العباسية من خلال معرفتنا بنظام الخلافة وطبيعة الخلفاء وأسلوب الحكم، ولدينا أيضاً تصور عن أسباب القصور ومصادر القلق التي سوف تلعب دورها فيما بعد في القضاء على هيبة الخلافة وقصورها.

ولكن الأهم أن لدينا رؤية عن تلك التغيرات التي أصابت الحياة الاجتماعية والثقافية من خلال تطور نظام الحكم، ودخول عناصر قوية من الأمم الجديدة التي دخلت الإسلام وأصبحت من سدنة العربية لغة وفناً، والإسلام عقيدة

(١) أسطورة الزهد عند ابن العتاهية، د. محمد عبد العزيز الكفراوى ص ٣٩ ط القاهرة. وانظر الفرض الذي قدمه د. أحمد فريد الرفاعي في كتابه عصر المأمون ص ١٥٨ المجلد الأول ط ١٢٧ وهو يدور حول فكرة أن البرامكة كانوا متأثرين في الناحية السياسية بمدعب المعتزلة، وهو التمييز بين جناح المحصومة من الحزب الهاشمي، والرشيد لم يرض عن ذلك، وحرصه التعمير والرشوة من الجناح العباسي، وطبعاً في مقدمتهم الفضل بن الربيع.

وشريعة، وهي في الوقت ذاته تحتفظ لدى كثير من أفرادها بالعديد من العادات والتقاليد والرغبات والنزعات الموروثة، وكان للعدد الهائل من الجوارى الفارسيات والروميات دخل كبير في تغيير طبيعة الحياة الاجتماعية داخل البيوت العربية التي حسن لديها اقتناء الكثير من الجوارى والغلمان.

وسوف نتبين طبيعة التفصيلات العامة المتصلة بهذا التغيير ونلمس دورها في الحياة الأدبية والفكرية.

ولكن جوهر الموضوع يدور حول أن الدولة الجديدة لها أسلوبها الجديد في الحياة الاجتماعية والفكرية، ولها قبضتها القوية على السياسة والحكم في الداخل والخارج، وإن تصديها لمناوئها وانتصارها الدائم عليهم هو الذي مكن لسكن تطور اجتماعي وفكري، لا سيما وأن الخلفاء دفعوا الحياة الفكرية والثقافية لتزيد هائل من العطاء والرعاية.

ولكن الدولة العباسية ظهرت معها عوامل نمت ما كان موجوداً من قبل وطوّرت، وأفسحت له الطريق، وأضافت إليه، ومن أبرز تلك العوامل غلبة النفوذ الفارسي، ونقل العاصمة من الشام إلى العراق، ولكن علينا أن نذكر أن العنصر الفارسي كانت تنمو سلطته ويحتل مكانته بتدرج في أواخر الحكم الأموي، والحركة العلمية أيضاً كانت تسير في خطى تبشر بالتمو والانساع، ولكن الدولة العباسية أفسحت الطريق، ودفعت الناس إلى التطور بسبب اتساع الأسباب في تغيير الحياة الاجتماعية والثقافية<sup>(١)</sup>.

(١) ضحى الإسلام ١/١ - ٤ ط ١.

## المبحث الرابع التجديد والتطور في العصر العباسي

### ١ - التحول الاجتماعي :

من المؤكد في دراسة أنواع التطور الاجتماعي والفكري أن التدرج القائم على أسبابه الطبيعية هو السنة الفعالة في ذلك، وليس سقوط دولة في يوم وقيام غيرها مكانها يعني وجود حدّ فاصل مميز بين عهدين في التطور، ومن هذا المنطلق فإن قيام الدولة العباسية لا يعني أن عوامل التطور والتغيير قد ظهرت فجأة معها أو أنها كانت منعدمة قبلها، فالدولة الأموية نفسها تطورت وأصبحت صورتها في آخر أيامها تخالف صورتها في بداية أمرها، وكما يقول الأستاذ أحمد أمين : « إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر في الحكم الزمن الذي حكته الدولة العباسية لظهر على يديها من الحركات العلمية والإصلاحات الاجتماعية قريب مما ظهر على يد العباسيين »<sup>(١)</sup>.

يقول الأستاذ الدكتور يوسف خليف : « لم يكن الانقلاب العباسي - في حقيقة أمره - ثورة سياسية فحسب أدالت لبني العباس من بني أمية، وإنما كان أيضاً ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام بني أمية إلى مجتمع إسلامي جديد تعيش فيه أمة إسلامية تضم إلى جانب العنصر العربي عناصر فارسية ارتفعت إلى منزلتها الاجتماعية حتى تفوقت على العرب، واستطاعت أن تفرض نفوذها عليه، وأن يكون لها تأثيرها الفعال في تطويره والتأثير فيه من شتى جوانبه، وطبعه بطابع فارسي جديد لم يعرفه المجتمع العربي أيام الدولة الأموية العربية، وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة فقال عبارته المشهورة التي يصف فيها الدولة الأموية بأنها : عربية أعرابية، والدولة العباسية

(١) ضحى الإسلام أحمد أمين ٢/١ ط ١.

بأنها: فارسية أعجمية<sup>(١)</sup>.

تغيرت الحياة في ظل الدولة العباسية تغيراً واسعاً فقد انتقلت الأمة من بقايا حياة البداوة الى الحضارة ومن خشونة العيش أحياناً إلى رخاء النعمة، وأصبحت الملابس الموشاة المطرزة الناعمة الرقيقة لباس كثيرين من الطبقة المتوسطة، وشارك الشعراء والأدباء في الحياة الناعمة مشاركة واسعة.

فلا عجب إذا اختلف الشعراء في هذا العصر عما كانوا عليه في العصور السابقة لأن الشعراء الذين أقاموا في المدن في العصور السابقة على هذا العصر كانوا قلة: كعدى بن زيد، وأمّية بن أبي الصلت، وحنان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة. ومعلوم أن الدولة الأموية كانت تعتمد على العنصر العربي وكان الشعراء من أهل البادية يفتدون إلى البصرة والكوفة أو الحجاز أو نجد وكثرتهم ليست متحضرة. أما في العصر العباسي فقد ترك الشعراء البوادي.. واتجهوا إلى المدن وفازت بغداد والبصرة والكوفة بنصيب وافر منهم، وينبغي ألا ننسى في هذا الدور ظهور طبقة من الشعراء الموالي فهم أسامياً ليسوا من أهل البوادي ولا من عشاق المثل الأعلى في الحياة الاجتماعية العربية.

ومن يتبع حياة الترف والبذخ في ظل الدولة العباسية فإنه يرى شيئاً فوق التخيل والوصف، فالقصور الواسعة المترفة ذات الشرفات المتعددة والحمامات المزودة بالمجاري تحت الأرض والبساتين والنافورات والبرك، والزجاج الملون ومصارع الأبواب المصنوعة من الأخشاب الراقية والمزينة بالنقوش والمبطنة بالأغطية والمرصعة بالفضة والذهب، وكذلك الجدران المزودة بالرسوم والمعنى عليها الستائر، والسقف المذهبة والبسط الإيرانية الغالية والتحف النادرة والأواني المرصعة بالجواهر. كل هذا كان في حياة الخلفاء والوزراء، وشيء قريب منه في حياة الطبقة المتوسطة من التجار وغيرهم، وكان الشعراء ينعمون بكل هذا، فدور الخلفاء والوزراء وعلية القوم مفتوحة لهم.

(١) تاريخ الشعر في العصر العباسي ص ١٧ دار الثقافة القاهرة ١٩٨١ م.

وكانت موارد الدولة كثيرة وكانت تمنح الشعراء وغيرهم من العلماء والأطباء والمغنيين أعطيات تكفل لهم حياة الرغد والترف، ونافس الوزراء الخلفاء في الهبات للشعراء والمغنيين، وأصبح الشعراء والمغنون طبقة مترفة تلبس المقاطع الحريرية وتستكثر من الديباج والخز ومن أنواع العطور والطيب، وبالغ النساء الحرائر والجوارى في الزينة والأناقة ويقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلى بعقد من الجواهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار وكان الرشيد قد أهدها إليها<sup>(١)</sup>.

وينبغي ألا ننسى في هذا السياق أن الطبقة المترفة من الأمة لم تكن تمثل الكثرة الغالبة ولذلك فن الطيعى أن يعم البؤس والشقاء الجمهور العريض من العرب والموالى على السواء، ومن ثم قام عديد من الفتن والثورات في العصر العباسى.

لكن الشيء المؤكد أن حياة الترف التى أصابت الشعراء والعلماء كانت تعبيرا عن حب الدولة لهم وتقديرها لجهودهم، وذلك لأن العصر العباسى لا سيما الفترة الأولى منه تمتاز «بأن من تولى فيها عرش بغداد كان من الخلفاء العلماء فرغبوا في العلم وإجلال للعلماء والأدباء، وسهلوا نزوحهم إليهم وأجروا الأرزاق عليهم وبالغوا في إكرامهم، وقربوهم وجالسوهم وأكلوهم وحادثوهم، وعولوا على آرائهم، فلم يبق ذو فريجة أو علم أو أدب إلا يم دارالسلام ونال جائزة أو هدية أو راتباً»<sup>(٢)</sup>.

وفي المجتمع الجديد ظهرت طبقة الرقيق والجوارى وكثرت مجالس الغناء وتعددت دور المجانة واللهو والشراب وكانت مترعة بالعلمان، وكانت قيمة الجارية ترتفع بقدر ما تجيد من أمارات اللهو والترف والتحضر وفي مقدمتها الغناء والرقص. وازدهمت الدور بالرقيق من الجوارى وكان الرجال بعامة يفضلونهن

(١) العصر العباسى الأول، د. شوق ضيف ص ٥٠ ط ٢ وانظر في الموضوع جرجى زيدان

٢٢٥/٢ وتاريخ الشعر العربى ص ٧ د. محمد عبد العزيز الكفراوى.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان ٢٣٦/٢.

على الحرائر، وصوّر الجاحظ ذلك فقال: «قال بعض من احتج للعلّة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من المَهْيرات»<sup>(١)</sup> أن الرجل نبل أن يملك الأمة يكون قد تأمل كل شيء منها وعرف ما خلا حظوة الخلدوة. فأقدم على اتباعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرّة إنّما يستشار في جمالها النساء... والرجال بالنساء أبصر»<sup>(٢)</sup>.

وبلغت النظر إلى حد بعيد سعة حظوة الجوارى عند الرجال بحيث كن يزمن بيوت الخلفاء والولاة وسراة الناس، ومعروف أن ذلك الأمر اتسع كثيرًا في العصر العباسي الأول<sup>(٣)</sup> وقد رأينا أن أكثر الخلفاء من أمهات أعجميات<sup>(٤)</sup>، فالنصور أمه حبشية، والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية، والمأمون أمه فارسية، وكان للرشيّد زهاء ألفى جارية، وكان للمتوكل أربعة آلاف<sup>(٥)</sup>.

ويبلغ من دَلّ الجوارى وحرّيتهنّ أنهن كن يعلّقن الصلبان في مجالس لهرهن وسمهرهن في مجلس المأمون<sup>(٦)</sup>، وكان ذلك يحدث في بيت المهدي من قبل<sup>(٧)</sup>.

وشيءٌ خطير الدلالة في تطور الحياة الاجتماعية بسبب كثرة الجوارى وشيوعهن مع إيثارهن هو اتجاه العباسيين إلى التوسع في تعليمهن، وأكثر عنايتهم كانت بتعليمهن الغناء، ذلك أن الغناء كان قد تطور تطورًا كبيرًا في ظل الدولة العباسية، وأن الناس شغلوا به وكانت له مدارس متعددة<sup>(٨)</sup>، وقد

(١) المهيرة: الحرّة الغالية المهر.

(٢) رسائل الجاحظ ص ٢٧٤ ط الستون.

(٣) راجع ضحى الإسلام ٩/١ ط ١، ثم انظر الفصل الخاص بالرقيق ص ٧٩ ما بعده.

(٤) يقول المسعودي: «ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا - وهو ستة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - من أبوه وأمه من بني هاشم إلا على بن أبي طالب كرم الله وجهه والأمين ابن زبيدة ولد الرشيد، ٤٠٤/٣ - ٤٠٥. مروج الذهب ط ٤.

(٥) ضحى الإسلام ٩/١.

(٦) السابق ص ٨٧.

(٧) السابق ص ٨٨.

(٨) راجع في تاريخ الغناء والموسيقى ما ذكره بروكلمان عند كلامه عن تاريخ الحضارة والثقافة ٦٣/٣

تاريخ الأدب العربي ط ٤ المعارف.

سعد الغناء وأهله في عصر المهدي إذ كان يكيل لهم المال كيلاً، واقتدى به الهادي في ذلك ثم خلفها الرشيد فجعل المغنين مراتب ودرجات، ومن أشهرهم حينذاك إبراهيم الموصلي ويقال إنه ترك تسميئة صوت صنعها ابتداءً، وبلغ من رقى هذا الفن أن أقبل أبناء الخلفاء على تعلّمه وقد أرنخ لهم صاحب الأغاني. وكان الغناء يرفع ثمن الجارية أضعافاً مضاعفة إذ يقال: إن صالح ابن علي عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم، وغيرها بلغ ثمنها مائة ألف وعن طريق الغناء والطرب والرقص شاعت في المجتمع أفانين الرقة والتظرف، وصاحب ذلك تطور في الأزياء وفي العطور وفي آداب الطعام والسمر.

ولكن الأمر تطور إلى ما هو أشد خطراً إذ عم المجون كثيراً من طبقات المجتمع وفي مقدمتهم الشعراء، وذلك أن الفرس أشاعوا بين الناس عوائدهم في ذلك وأصبحت الخمر والغزل بالذكر ومنادمة الجوارى مسائل قد عم بها البلاء، وأصبحت الحانات أماكن هو لا حدود لما يُرتكب فيها من آثام.

وكل هذا يلفت نظرنا إلى أن العصر كان عصر حرية اجتماعية نتج عنها هذا التطور الهائل في العادات والأخلاق والقيم عند الطبقة المترفة ومن ولاها. والمستول عن ذلك هو البيئة المدنية الجديدة. ولكن ذلك لم يكن يعم جميع الناس بل كان هناك من يرفضون كل هذا المنكر ويزدرونه ويحاربونه أو ينزلون عنه وينفرون منه، وهذا الصراع الاجتماعي بين المحيطة وإنكارها، وبين التدين والهروب منه صورته الشعر تصويراً واضحاً وبعض نماذجه ما ظهر عند بشار وأبي نواس من جهة وأبي العتاهية من جهة أخرى في مرحلة نُسكه.

وينبغي أن نشير بعناية هنا إلى أن الحرية لم تكن في الجانب الاجتماعي فحسب، بل كانت طابعاً يميز الحياة الدينية والفكرية، فقد كانت الحرية بصفة عامة من سمات هذا العصر إلا ما يمس الدولة أو الخلافة، ولذلك تعددت البدع الدينية في أيامهم من المحوس وغيرهم، هذا إلى جانب تعدد الفرق والنحل والمذاهب والأهواء «فكانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية في

ذلك العصر لا يُكره الرجل على معتقده أو مذهبه<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الجو تميزت اتجاهات كان لها تأثيرها في الحياة الأدبية والفكرية والسياسية أيضاً وهي: الشعبية والزندقة والزهد وسوف نعرض لها بالقدر المناسب في دراستنا للشعر والشعراء.

## ٢ - التطور الثقافي والنهضة العلمية :

يقول العلامة نيكلسون : « كان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل. حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنًا غدو فجأة طلاباً للعلم، أو على الأقل أنصاراً للأدب، وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والعرقان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنّفات التي هي أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل<sup>(٢)</sup>.

نعم كان الأمر كذلك فقد كانت الدولة العباسية تضم بلادًا واسعة الأطراف متعددة الأجناس واللغات فهي تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وتمتد من المحيط الهندي والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والروم والصقالبة شمالاً وهي « بذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران العراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب<sup>(٣)</sup> » وهذه الأقطار بشعوبها ولغاتها وأخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفها ونزعاتها ونزغاتها لم تكد تدخل في نطاق الحكم العربي حتى أخذت عناصرها

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ٢/٢٣٧.

(٢) انظر : Literary History of the Arabs, Nicholson, p: 281, London 1907.

(٣) العصر العباسي الأول، د. شوق ضيف، ص ٨٩، وانظر ضحي الإسلام ١/٥٠.

تختلط ثم تمتزج بالعنصر العربي واللغة العربية، وهكذا جرت الحوادث والأسباب بما أدى إلى انصهار هذه الشعوب وتلك الأمم في بوتقة الأمة العربية والحضارة الإسلامية حتى غدت هذه الأجناس كأنها جنس واحد.

والاختلاط والامتزاج لم يتوقفا عند حدود التجاور أو تبادل مصالح الغالب والمغلوب لدى كل منهما عند الآخر، بل إن الاختلاط أصبح امتزاجاً بالدم عن طريق المصاهرة والتسرى وكثر أولاد العرب من الأجنبيات وكثرت علاقات الولاء الذي كأن يأخذ شكل رابطة القرابة والدم، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو غير ذلك ويكون ولاؤه في قبيلة عربية ينتسب إليها وتقوم هي بحماية حقوقه والذود عنه.

واستطاع الإسلام بتعاليمه السمحة الكريمة أن يسوى بين كل المسلمين وأن يقرر الحقوق الأساسية لغير المسلمين بحيث تحفظ حقوقهم وكراماتهم، ويعجب المؤرخون من أن الإسلام بعد أن بسط نفوذه بجوالى قرن على هذه البقاع فإذا بالعربية «قد ملكت السنة الناس وقلوبهم... وأصبحت شعوبها... عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب... وقد اختلف إسرائها إلى هذا التعرّب (أو التعريب) باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام، وكان تعربها جميعاً قد بدأ في الجاهلية، وأتمته الفتح العربية سريعاً... ثم تعربت مصر وبلاد المغرب تدريجياً»<sup>(١)</sup>.

أما الفرس فقد أقبلوا على العربية بل على التعرب إقبالاً منقطع النظير وقد تعلموا اللغة وأتقنوها وأجادوها، ونعجب كل العجب إذ نرى هذه اللغة وقد سيطرت على وجدناهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، إلى الحد الذي نرى فيه الكثرة الكاثرة من الشعراء العباقرة الذين يحتلون مكانة كبرى في تاريخنا الأدبي من الموالى الفرس، الذين امتزجوا بالعنصر العربي واللسان العربي وأصبحوا جزءاً عزيزاً من تراث العربية، وهذا يدل أبلغ دلالة على أن هذه الشعوب ذات الحضارة والتاريخ قد وجدت شيئاً قوياً سيطر عليها وأصبح يشكل وجودها

(١) العصر العباسي الأول - شوق ضيف، ص ٩١، وانظر ضحي الإسلام ص ٥/١ - ٨ ط.

الحق، وهذا الشيء لم يخرج عن أمرين اللغة العربية والدين الإسلامي، ولا عجب بعد ذلك أن نرى بينهم عمالقة العشاء وكبار العلماء في شتى فروع المعرفة عربية وإسلامية فأبو حنيفة النعمان وكثرة من تلاميذه من الفرس وشيخ العربية وعميد النحو العربي سيبويه ونايغة الكتاب والمترجمين بعد بعد الحميد الكاتب وهو ابن المقفع وغير هؤلاء ممن لا يدخلون تحت حصر، فما الظن إذا كان الحديث عن الإمام البحارى وأمثاله.

وينبغى أن نتذكر جيداً أن الذين دخلوا في الدين الجديد وأشربوا تعاليمه وأتقنوا اللغة الجديدة لم يهجروا لغتهم تماماً، فقد ظلت لكثرة منهم لغاتها الأصلية وكان لذلك دوره في تسرب بعض الألفاظ إلى العربية لا سيما من الفارسية، وأخذ اللحن يفسو، ولكن علماء اللغة كانوا لحن بالمرصاد وكانوا حماة التراث الأدب من اللحن والخلط والخطأ وسوف نعرف بعد قليل دورهم على نحو محدد.

ويجب أن يكون واضحاً لدينا أن الأمم التي قهرها العرب المسلمون كانت تزخر بكثير من العلوم والمعارف. وقد كشف الإنسان العربي بمجرد لتسائه بالعلوم والمعارف والثقافات في الأمم التي اتصل بها عن رغبته الوثيقة في المعرفة وحرصه عليها، ويكفي أن نشير في هذا السياق إلى اهتمام الخلفاء بنقل العلوم والمعارف إلى العربية وأيضاً حرصهم على التفوق في كثير من العلوم والمعارف السائدة في عصرهم بعد هذا الامتزاج وذلك الاختلاط وبعد انتشار الترجمة وتوفر النشاط فيها، ومن المعروف أن المأمون كان عالماً بالعربية متعمقاً في العلوم الدينية والفلسفية مشتغلاً بمسائل علم الكلام، وكان يقيم الندوات والمناظرات في قصره ويشارك فيها مشاركة واسعة، يقول يحيى بن أكنة<sup>(١)</sup>: «أمرق المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر عنه عصر المأمون، فريد رفاعي، المجلد الأول ص ٣٠٨ ط ١٩٢٧ دار الكتب

(٢) العصر العباسي الأول «شوق ضيف» ص ١٠٥.

ويمضى يحيى بن أكرم فيقول إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إليه المأمون أن ينوع المجالس ويجعلها مجالس متخصصة تجمع من أهل كل فن أعلمهم وأحدثهم وينص المسعودي صاحب مروج الذهب فيقول

«قرب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبى هذيل العلاف، وأبى اسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقها وخالفها (يريد المعتزلة وغيرهم) ولزم مجالسة الفقهاء، وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل»<sup>(١)</sup>.

ويصور لنا المسعودي مجلساً من مجالس العلم في بلاط المأمون فيقول<sup>(٢)</sup> :  
 «كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم : إنزعوا أحفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء، ومن خُفِّه ضيق فليزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوة فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمحارم فبحروا وطبَّوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، وينظرهم أحسن مناظرة، وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تُنصبُ الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون».

ويقول الجاحظ : «قال سهل بن هارون يوماً وهو عند المأمون من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الخلال. قال المأمون قد يسمى بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم. فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا، ولو قلت إن العلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصى أصنافه ولا

(١) نقلنا عن العصر العباسي الأول، د. شوق ضيف ١٠٥-١٠٦، وقد راجعت المسعودي عند

الكلام عن المأمون فلم أجد النص ولعله جاء في سياق آخر.

(٢) مروج الذهب ١٩/٤ ط ٤ تحقيق محمد عبي الدين، وراجع عصر المأمون د. فريد رفاعي في

ثلاثة مجلدات ط دار لكتب سنة ١٩٢٧.

يضبط آخره فالأمر على ما قلت، فإذا كان الأمر كذلك فابدءوا بالأهم فالأهم وابدءوا بالقرض قبل النفل، فإذا فعلتم ذلك كان عدلاً<sup>(١)</sup>.

ولم تكن مجالس الخلفاء وحدها بل كانت مجالسهم هذه علامة واضحة على سريان هذه الروح في الأمة كلها، فكانت دور العلماء والخاصة وغيرها من الأماكن العامة والخاصة متدى فكرياً وثقافياً، وكانت الحرية الفكرية تكفل للناس أن يفكروا وأن يقولوا.

على أنه ينبغي أن يكون واضحاً لنا أن التعليم كان ميسراً لعامة الناس وكانما المعرفة كانت مطروحة بالطرق، فالمساجد مفتوحة عامرة بمحلقات الدرس والجدل والمناظرة، ودكاكين الوراقين كانت أشبه بدور الكتب حالياً فالناس لا يقصدونها للشراء فحسب بل للقراءة أيضاً نظير أحر زهيد.

ونظراً لتيسير العلم والمعرفة فإننا نجد أبناء العامة قد نبغ منهم خلق كبير فبشار أبوه كان طياناً يضرب طوب اللبن، وأبو نواس كانت أمه فيما يقال تغزل الصوف أو تبيع شيئاً من عطاراة النساء، وأبو العتاهية كان يحمل الجرار على ظهره يبعها في شوارع الكوفة، وأبو مسلم بن الوليد كان حائكاً. وأبو تمام كان أبوه عطاراً أو مخاراً واشتغل في صغره بجياكة الملابس، وهكذا وجد أبناء العممة سبيل العلم ميسرة سهلة، فالعلم منتشر في كل البقاع لا يرد قاصداً إليه، وبذلك أصبح الطريق لنبوغ أولاد العامة من الناس مفتوحاً إلى متناه.

لا عجب مع هذا أن تشيع العربية وأن ينتشر التعليم والتثقيف بها وأن تصبح لغة الفكر والاحساس، لا سيما وأن هممة الخلفاء ومن والاهم، وكذلك تحمس العلماء المسلمين في طلب المعرفة والتوسع في نشرها كان متوفراً كل هذا دفع الأمة دفقاً إلى نقل علوم الأمم الأخرى، والعناية بترجمتها ليعم انتشارها ويسهل الانتفاع بها.

وهنا إشارة تاريخية يحسن أن نتوقف عندها قليلاً وهي أن أمة الفرس

(١) البيان والتبين ١٨٥/٣ ط دار الكتب العلمية بيروت وانظر مناظرة المامون للمعتمد الخراساني

ص ١٨٦، وانظر مناظرة لأحمد بن ابن داود ص ١٨٧.

كانت أقوى الأمم علاقة بدولة العباسيين وكانت في الوقت نفسه قد تجمعت لديها تقريباً كل علوم الحضارات السابقة والمعاصرة يقول الأستاذ جرجي زيدان : « لما تولى كسرى أنو شروان العادل (٥٣١-٥٧٨ م) فتح للفرس مورداً جديداً للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد (يوستينيان) قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر إقفاله الهياكل والمدارس الوثنية، وكانت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة قد نضجت، ففر بعض أصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم وجاء سبعة منهم إلى أنو شروان فأكرم وفادتهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها إلى الفارسية، ورغب الناس فيها، وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن، حتى خيل لليونان الذين جالسوا أنو شروان أنه من تلاميذ أفلاطون، ولم يقتصر أنو شروان على نقل علوم اليونان إلى لسانه، ولكنه نقل علوم الهنود أيضاً من السنسكريتية إلى الفارسية وأنشأ في جند نيسابور ما رستانا لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم إليه الأطباء من الهند وبلاد اليونان، وكانوا يعلمون فيه الطين الهندي والأبقراطي»<sup>(١)</sup>.

«وجملة القول أن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد، ولم يتركوا لسانا من ألسن الأمم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية.. فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس. وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأفاصيص على الهنود، وفي الفلاحة والزراعة والتنجم والسحر والطلاسم على الأنباط والكلدان، وفي الكيمياء والتشريح على المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهند واليونان، وقد مزجوا ذلك كله واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي»<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ٢ / ٣٠ - ٣١.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ٢ / ٣٥.

«ويلاحظ أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم في قرن وبعض القرنين لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون، وذلك شأن المسلمين في أكثر أسباب تمدنهم العجيب»<sup>(١)</sup>.

وبالضرورة فإنه كان لهذا النقل أثر هائل في الآداب الاجتماعية وكذلك في الآراء والأفكار لا سيما ما نقل عن الفرس في أبواب التاريخ والآداب وهذا الأثر شبيه تمامًا بتلك الآثار التي نجمت عن صلاتنا المعاصرة بالآداب والحضارة الأوربية، فإننا تأثرنا في تفكيرنا وعوائدنا وقيمنا بكل ما تقاطر إلينا من خير أو شر معاً، ومثل ذلك حدث مع العرب على نحو واسع في العصر العباسي. والمسلمون الذين أخذوا هذه العلوم بالنقل وعكفوا على دراستها وتأملها استخرجوا منها وأضافوا إليها وألفوا تأليف عجيبة تنسب إليهم إلى اليوم، وقد أصبحت الحضارة الفكرية والعلمية التي آلت إليهم ذات طابع عربي إسلامي لأن حب المعرفة كان قائماً ومهيماً على نفوس جلة العلماء وهذه الحضارة العربية الإسلامية الجديدة هي التي كان عليها اعتماد الأوربيين في نهضتهم الأخيرة التي نتج عنها تيار المدنية الحديثة بكل ما فيها من تطورات وآفاق. فالحضارة الإسلامية في جوانبها العلمية هي التي قادت خطى النهضة الأوربية الحديثة، ولولا هذه الحضارة الإسلامية لكان على أوروبا أن تبدأ المسيرة الفكرية والعلمية من الصفر، وما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه اليوم إلا متأخرة حيناً.

إن الذي ينبغي أن نشير إليه كثيراً هو أن العقل العربي في العصر العباسي الأول أصبح عقلاً علمياً وفلسفياً معاً ومن هنا انطلقت يضيف علومًا جديدة في أدق فروع الرياضة وأصعبها وهو علم «الجبر» الذي وضع أصوله الخوارزمي ذلك الرجل الذي ألح عليه الفكر فاصطدم بسارية في المسجد دقت رأسه لأنه كان مشغولاً بوضع جدول حساب بسيط تعرفه الجارية الصغيرة غير المتعلمة وتذهب

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ٢ / ٣٦. وانظر أيضًا في هذا الموضوع صمى الإسلام، تاريخ الأدب العربي حنا القاصوري. عصر المأمون فريد رفاعي.

به إلى السوق فلا تحطى في حساب يعرض لها أو يعرض عليها، وهذا الرجل نفسه هو صاحب حساب المثلثات، وكما يقول المستشرقون عنه إنه افتتح عصرًا جديدًا في الرياضيات وكان أيضًا من أكبر علماء الفلك، ونبع مثل الخوارزمي كثيرون في شتى فروع العلم التجريبي كالطب والكيمياء إلى آخر ما هو شائع معروف عن العرب في ذلك، حتى لدى المستشرقين أمثال ناليو. . . وألدوميل.

ومن المهم أن نشير بعناية إلى أن هذه العقلية العربية لم تقف عند حدود التقدم العلمى في العلوم الحديثة أو الدخيلة التي نقلت إليها بل إن العقلية العربية مضت إلى وضع علوم العربية على أسس وقواعد ونظريات وكذلك العلوم الإسلامية. فدارس البصرة والكوفة في النحو واللغة. ومدارس الفقه واختراع علم أصول الفقه وهو من أعظم العلوم الذي يشهد بعبقرية العقلية العربية والذي ما يزال يعطى الدليل بدقته وروعته على رقى العقلية العربية الإسلامية في ميدان مناهج العلوم واستنباط قواعدها وتحديد أصولها على نحو متكامل محكم. والعلوم العربية والإسلامية كثيرة لا تدخل تحت حصر وحسبنا الإحالة هنا على كتاب ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين<sup>(١)</sup>.

(١) راجع أيضًا: تاريخ آداب اللغة العربية جرجى زيدان، وعصر المأمون أحمد فريد الرفاعي، والعصر العباسي الأول. شوق ضيف، وتاريخ الأدب العربى حنا الفاخورى.

## المبحث الخامس

### أبرز سمات النهضة الأدبية في العصر العباسي

لمحة عن الحياة الأدبية قبل قيام الدولة العباسية :

يمكن القول بأن نقطة البدء الحقيقية لانطلاق الشعر والشعراء إلى آفاق الحياة بشعابها المشروعة وغير المشروعة توافق مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أدى مقتله إلى انقسام الأمة ووقف معاوية وأتباعه يطالبون بشار عثمان وورائته في الخلافة، ووقف علي وأتباعه في الجبهة الأخرى ضدهم ووقف الشعراء فريق إلى هؤلاء وفريق إلى أولئك وأصبح معاوية يتملق الشعراء لنصرته، وعلي يحتلمهم ويحاملهم ليقوموا بالدفاع عن مذهبه ووجهة نظره، وفي هذا الجو خفت قبضة الدين وفتر الحماس الشديد للوقوف عند الجزئيات الدقيقة من تعاليمه لدى نفر غير قليل، ونشأ جيل جديد علي غير التشدد في الدين وهكذا فُتح اجاب على سعة للشعر والشعراء.

وما أن انتزع الأمويون الخلافة من علي وأتباعه حتى تشددوا في محاربة العلويين وفي التصدي لكل الخارجين على حكمهم من الزبيريين والخوراج، وكان الأمويون يعتمدون على الشعراء في الانتصار لأنفسهم والنيل من خصومهم وأجزلوا العطاء للشعراء وأصبحت الوظيفة الأولى للشعر في تلك الآونة الصراع السياسي والمذهبي وإثارة العصبية، وتعلق الحكام والسدعاية لهم طمعاً في جوائزهم وصلاتهم، وهكذا ارتفع شعر السياسة والعصبية والمدح، ثم اتسع إلى جانب ذلك وربما في مقابله شعر الغزل. ووجد لدينا تياران كبيران منه، هما: الغزل الحسي العابث وزعيمه عمر بن أبي ربيعة، والغزل العذري ومن زعمائه جميل بشينه وكثير عزة، وقيس بن ذريح، ومجنون ليلى: قيس بن المرح.

وينبغي أن نشير بعناية هنا إلى الخصومات الأدبية التي يمثلها شعر النقائص

بين جرير والفرزدق فهذا النوع من الشعر كان ملهاة للناس عن شئون السياسة وإن أخذ بأطراف منها وكان ترفاً فاسداً في الفن الشعري.

وفي الوقت ذاته كان يلعب شعر النقائض دوراً هاماً في إثارة العصبية التي تعمل بدورها على بث الفرقة وانشغال القبائل بمجازاتها القديمة والحديثة، وذلك الدور يخدم الوضع السياسي الذي كانت تحرص عليه حكومة بني أمية لضرب القبائل بعضها ببعض حتى لا تجتمع كلمتها ضد نظام الحكم ولا تجد وقتاً لنقده، أو لمطالبته بتطبيق قواعد الإسلام وخلاتقه تأسياً بأيام الخلفاء الراشدين، ف شعر النقائض كان يمثل ملهاة اجتماعية، وفي الوقت ذاته يقوم بدور سياسي فعال في خدمة نظام الحكم الذي يحارب في أكثر من جهة، وأصبح من أسلحته في الساحة الأسلوب الفطري المعروف «بفروق تسد».

وسعة هذه الأغراض وتنوعها نهضاً بالشعر إلى دور جديد من أدواره بحيث يمكن القول بأن الشعر طرأت عليه أنواع من التأثيرات وظهرت فيه سمات تميزه عن العصر الجاهلي مع التسلم بأن الشاعر الأموي كان مخلصاً لتقاليد الشعر الجاهلي، ولكن ذلك الإخلاص لم يمنعه من تقديم إضافات فنية استجابة لروح العصر والبيئة والإنسان الجديد الذي عاش في ظل الحكم الأموي والفتوحات الإسلامية، لأن الإنسان كان قد أصاب حظوظاً متفاوتة من الترف والثقافة شكلاً مزاجه وشخصيته على نحو يختلف كثيراً عن إنسان العصر الجاهلي<sup>(١)</sup>.

حتى إذا كان العصر العباسي واستقرت به الأحوال وتغير فيه وجه الحياة الاجتماعية والثقافية بسعة التطور فيها كان للشعر والشعراء سمات وميزات وخصائص سوف نتعرف عليها فيما يلي :

### لغة الشعر بين التراث والتجديد في العصر العباسي :

١ - يلفت نظر المؤرخ للأدب هذا الدور الإيجابي الذي قام به علماء اللغة في العصر العباسي حيث حفظوا على اللغة العربية سلامتها من مدهامة اللحن

(١) انظر التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوق ضيف، وانظر تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وبني أمية ج١ د. محمد عبد العزيز الكفرازي وانظر له أيضاً الشعر العربي بين الجمود والتطور.

لها وتأثيره فيها وكان هؤلاء العلماء دورهم الكبير في الاتجاه إلى اللغة القديمة في باديه لانتهاذا مثلا أعلى يجتدى في مفرداتها، وتراكيبها، وأنماط الأساليب المختلفة فيها، وكذلك الاتجاه إلى الفن الشعري القديم على أنه النموذج الأمثل الذي يجب الاهتداء به والافتدأ بتقليده.

ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي :

كان هناك نفر غير قليل من شعراء البادية يتجهون إلى الحواضر بمسوتها بسليقتهم العربية المستقيمة ويقدمون لهم تراث العربية في نضاء وإتقان، وقد تحول نفر كبير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين للناشئة وغيرهم من الراغبين في إتقان اللغة ورواية الشعر القديم<sup>(١)</sup>.

ومن أبرز هؤلاء الشعراء : أبو البيداء، وابن الدمينية، وابن مياده، وأبو ضمضم الكلابي، والعماني، وشبيل بن عزة الضبيعي، وغيرهم.

وقد بذل علماء اللغة منذ أواخر عصر بني أمية جهداً كبيراً في جمع ألفاظ اللغة وأشعار الجاهلية والإسلام، والسبب الرئيس في بذل هذه الجهود هو نشر لغة القرآن وحمايتها من اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، خاصة وأن الكثيرين من أولاد العرب قد نشئوا في حجور أمهاتهم الأعجميات فضعفت فيهم السليقة وأخذ اللحن يفشو من أجل هذا كله قام علماء الكوفة والبصرة في أواخر العصر الأموي بجهود هامة وأصيلة في حماية اللغة، وقد احتاطوا لسلامة اللغة احتياطاً واسعاً فلم يأخذوا اللغة من عرب متحضر بل رحلوا في طلبها إلى قلب الجزيرة حيث ينابيعها الصافية وكانوا بذلك يقصدون غايتين : أولاهما : أن يقوموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة. وثانيتهما : أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التي يعرضونها على الناشئة وفي حلقات المساجد<sup>(٢)</sup>.

(١) الفهرست لابن التميمي ص ٦٥ ط القاهرة وانظر : المستوى اللغوي للفصحى واللهجات للنثر والشعر د. محمد عبد الفضيلين الثان والثالث، ط عالم الكتب.

(٢) العصر العباسي الأول د. شوقي ضيف ص ١١٨.

ويصور أبو نصر الفارابي ذقة هؤلاء العلماء وحرصهم في الحفاظ على اللغة من كل لحن ودخل فيوضح أنهم أخذوا اللسان العربي من قيس وقيم وأسد ولم يأخذوا من أهل حذام لمجاورتهم أهل مصر، ولا من أهل قضاة وغسان لمجاورتهم أهل الشام، ولا من بكر لمجاورتهم الفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن، ولا من حاضرة الحجاز لأنهم خالطوا غيرهم من الأمم في ذلك الحين<sup>(١)</sup>.

بل كان التوغل في نجد لسلامة لغتها وكان أبو عمرو بن العلاء وهو شيخ العلماء وإمامهم يقول: «لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية»<sup>(٢)</sup> يقصد الجزء العربي من نجد وما يتراعى إليه.

ويمكن تحديد أجيال علماء اللغة منذ أواخر العصر الأموي على النحو التالي: الجيل الأول في البصرة وعلى رأسه أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ وعنه يقول الجاحظ «كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس»<sup>(٣)</sup>.

وفي مقدمة رجال الجيل الثاني لعلماء اللغة خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ هـ، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ هـ، وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ هـ - وعن الأصمعي رويت أشهر الدواوين وهي لامرئ القيس، والناطقة، وزهير، وطرفة، وعنترة، وعلقمة بن عبيدة.

وأهم أفراد الجيل الثالث محمد بن سلام الجمحي صاحب طبقات الشعراء (١٣٩ - ٢٣١).

وكان في الكوفة مدرسة من العلماء يشكل الجيل الأول فيها حماد الرواية

(١) النص يتصرف واحتصار عن المرزبوري للسيوطي ط الخليلي ٢١١/١.

روايع: المستوي اللغوي د. محمد عيد. الفصل الثامن وخريطة القبائل ص ٦٧.

(٢) نقلا عن العصر الذهبي الأول د. شوقي ضيف ص ١١٩.

(٣) السابق.

المتوفى سنة ١٥٦هـ، والمفضل الضبي ذلك الثقة الصدوق الحجة في اللغة والغريب صاحب المجموعة الشعرية المعروفة بالفضليات.

وأشهر أفراد الجيل الثان أبو عمرو الشيبان المتوفى سنة ٢١٣هـ وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١هـ ومن الجيل الثالث ابن الأعرابي أيضاً وكذلك أبو عبيد القاسم بن سلام وهو صاحب غريب الحديث<sup>(١)</sup>.

والذي يهمنا هو القول بأن جهود علماء اللغة منذ أواخر عصر بني أمية كانت آخذة في تبوء مكانتها للحفاظ الدقيق على اللغة في شتى المستويات.

فلما كان العصر العباسي تحولت السليقة العربية السليمة إلى شعراء الخضر، فقد جمع علماء اللغة الشعر الجاهلي والإسلامي ووضعوا المقاييس اللغوية في صورة واضحة ودقيقة وظلوا يبعثون في شعراء الخضر الإيمان بأن الشعر القديم هو المثل الأعلى والقنوة الرفيعة، وكان من علماء اللغة ورواتها شعراء مقتدرون مثل حماد الراوية وخلف الأحمر والخليل بن أحمد.

وكان علماء اللغة يعنون كثيراً بعرض نماذج الشعر القديم المليئة بالحوشى والغريب يقول الجاحظ: «لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج»<sup>(٢)</sup>.

وأهم المجموعات الشعرية التي قدمت للشعراء آنذاك مجموعتان هما الفضليات للضبي الكوفي، والأصمعيات للأصمعي البصري، ويمكن القول «بأن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجلوها ودونوها، وفسروها وشرحوها وبذلك انقادت اللغة وسلمت لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء»<sup>(٣)</sup>.

وكان هناك سببان للعناية باللغة على هذا النحو في العصر العباسي وهما

(١) راجع الموضوع بتوسع في المرجع السابق ص ١١٩ وما بعدها.

(٢) البيان والتبيين ٢٤/٤.

(٣) العصر العباسي الأول د. شوق ضيف ص ١٣٩.

العناية بفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وثانيهما: عامل سياسي فعال هو أن خلفاء بني العباس لم يعتمدوا في تأسيس دولتهم وإقامة دعائم الحكم فيها على العنصر العربي بل على الفرس، وحتى لا يُتهم الخلفاء في ولائهم للعروة والإسلام، وهم أهل بيت النبي عليه السلام أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وتراث العربية وشجعوا العلماء تشجيعاً كبيراً على رواية ودراسة كل ما يتصل باللغة وأخبارها من أنساب وأيام وأشعار، وكان الخلفاء العباسيون لا يستوزرون ولا يسندون الوظائف الكبيرة في الدولة إلا إلى من حذق اللغة وبرع فيها، وقد أخذوا أبناءهم بتعلمها وإتقانها وأحضروا لهم كبار المعلمين من اللغويين المتأدبين، وقد جمع المفضل الضبي مجموعته الشعرية المشهورة من أجل المهدي وهو لما يزل ناشئاً في رعاية أبيه، وكانت مجالس الخلفاء عامرة باللغويين والشعراء والأدباء، وكان الخلفاء أنفسهم على مستوى راق من الثقافة اللغوية والأدبية وكانوا يفاضلون بين الأدباء ويهونهم المنح والعطايا طبقاً لمراتبهم في العلم والأدب<sup>(١)</sup>.

وفي هذا العصر يمكن القول بأن علماء اللغة كانوا سدنة الشعر وحراسه، وبلغ من سلطانهم أنهم كانوا يمنحون الشعراء جواز المرور، أو إجازة الشعر التي يصبحون بها مؤهلين لمواجهة الجمهور بأشعارهم، إذ كان الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها في المحافل فإذا استحسبها العلماء أمكن للشاعر أن يواجه المحافل الكبيرة، وإلا عاد الشاعر إلى المران والدرية ليصل إلى الإتقان، يروى صاحب الأغاني: أن مروان بن أبي حفصة لما نظم قصيدته (طرقتك زائرة فحى خيالها) عرضها على يونس النحوي في حلقة درسه فأعجب بها يونس وقال له: إنها بريئة من العيوب. وحينئذ مضى الشاعر إلى المهدي فأنشدها بين يديه، فزحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع. ثم قال لمروان كم هي؟ قال مروان: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم.

(١) راجع على سبيل المثال: عصر المأمون فريد رفاعي المجلد الأول ٣٧٥ - ٤٠٦ ط ١٩٢٧.

ويعقد المرزبان في كتابه الموشح فصلاً طويلاً يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليحيزوها لهم، يقول الخليل بن أحمد ابن منذر: «إنما أنتم - معشر الشعراء - تبع لى. وأنا سَكَّان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتهم»<sup>(١)</sup>.

وهكذا سيطر اللغويون على سوق الشعر في العصر العباسي وتعبصوا لشعر القديم واتخذوه المثل الأعلى للشعر، ولم يقبل كثير من علماء اللغة الاحتجاج بالشعر العباسي، فكان أبو عمرو بن العلاء يحتم الشعراء بنذى الرمه، وكان الأصمعي يحتم الشعر بابن مياده، وابن هرمة من شعراء نجد والحجاز ممن أدركوا الدولة العباسية، والناقد الفنى لا يوافق اللغويين على إهدار شعر العباسيين من الناحية الفنية ذلك أن المستوى الفنى للشعر العباسي يحتل مكانة واسعة في الحلقة الذهبية لتاريخ الشعر العربي. هذا من الناحية الفنية، أما المستوى اللغوي لهذا الشعر فقد أثبت البحث والدرس في زمن العباسيين ومن الأهم صحة لغة الشعراء العباسيين، وما أخذ على بعضهم له تحريج في العربية. ولكن علماء اللغة في تشدهم كان يحفزهم عامل ديني له قيمته الكبرى وهو وثاقة لغة القرآن الكريم من جهة، وإيمانهم من جهة أخرى بأن المثل الشعرى الأعلى هو الصورة التى رسمها الشعر القديم: «وحتى يحتفظوا به بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة»<sup>(٢)</sup> أغلقوا الباب أمام الشعراء المحدثين وذهبوا يعدون عليهم سقطاتهم، وهذه السقطات ليست أخطاء بالمعنى الصحيح فهى إما لغات غير مشهورة أو شاذة وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها في ضوء المقاييس والقواعد اللغوية التى تعلموها من علماء اللغة أنفسهم.

وكان الشعراء يتقفون أنفسهم ثقافة لغوية وأدبية واسعة تجعل خطأهم أمراً بعيداً. فهذا أبو نواس يتزود باللغة على يد خلف الأحمر ثم يمضى إلى البادية فيقيم بها حولاً كاملاً ينهل اللغة من ينابيعها، ثم يقبل على دواوين الجاهليين

(١) الأغاني ١٧/١٦.

(٢) العصر العباسي الأول ص ١٤١ د. شوق صيف.

والإسلاميين فيحفظها، ويقول الجاحظ عنه : « ما رأيت أحدًا كان أعلم باللغة من ابن نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه » ويقول أبو عمر الشيباني : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره لأنه محكم القول » ويشار قبل ابن نواس بلغ من إتقانه اللغة أنه كان يتحدى في ثقة واقتدار، ويروى عنه صاحب الأغاني مواقف متنوعة في ذلك<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان الشاعر العباسي المولّد أو الفارسي الأصل عرو اللغة إلى أرفع مستوى وأرق غاية. والذي لا شك فيه أن علماء اللغة بجهودهم الواسعة هيئوا للشاعر العباسي العلم بالشعر القديم بما جمعوا له منه، وما يسروا له من قواعد تعلم العربية وإتقانها، وساعد على ذلك تشجيع الخلافة للعلم بحيث كان العلم والتعلم ميسرًا إلى أبعد مدى على نحو ما أوضحنا ذلك فيما سبق.

ونظرًا لازدهار الحياة اللغوية والأدبية وتمكن الأدباء وثقتهم بأنفسهم، وإجادة سيطرتهم على الفن الشعري الذي أحبوه وعاشوا له أخذت اللغة من ناحية والفن من ناحية أخرى يزدهران على أيديهم، ومن هنا جاء أسلوب المحدثين أو المولدين في النهضة الشعرية يقوم بناؤه اللغوي وتقاليده الفنية العامة على أساس التراث اللغوي وعمود الشعر العربي إلى جانب طابع الذوق الحضري الجديد، فبينما المحافظة على اللغة في مادتها وطرائق تراكيبها وأساليب اشتقاقها أمر مقدس، فإن طابع العصر وملاءمة الفن الشعري للحياة الجديدة واستيعابه لها وللأبعاد الإنسانية المعاصرة بدا أمرًا مرغوبًا فيه إلى حد بعيد، بل كان يفرض نفسه فرضًا، ولذلك نرى أبا العتاهية ينكر على ابن منذر إسرافه في قول الأراجيز المشوة بغرائب الألفاظ ويقول له : « وإن كنت أردت بشعرك العجاج ورؤية لما صنعت شيئًا، وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت مأخذنا<sup>(٢)</sup> ».

وقد استطاع أبو العتاهية وشعراء عصره بمهارتهم الفائقة أن يذيعوا أسلوبًا

(١) السابز، وراجع ترجمته في الأغاني وحديث معارضته لغنية بن روية في أبحرته التي نُشدها في مجلس عفة بن مسلم بن قتيبة وفضيدة بشار التي مطنمها. ياطل الحى بذات نفسه.

(٢) الأغاني ٩٠/٤ دار الكتب.

متميزًا يبتعدون فيه عن خشونة البدو وكزازة ألفاظهم وانجهوا إلى تلك الألفاظ التي تتميز بالعدوية والرشاقة حينًا والجزالة والرصانة حينًا آخر، بل والشعبية المتنبذة أحيانًا وهم في كل ذلك ذوق متحضر محب ينفر من الغرابة والوحشية.

ويشار في مقدمة من أرسوا دعائم الأسلوب المولّد، يقول عنه ابن المعتز: «كان بشار يعد في الخطباء والبلغاء... وكان شعره أنقى من الراحة وأصنى من الزجاج وألس على اللسان من الماء العذب»<sup>(١)</sup> وهكذا من بداية العصر العباسي ظهر هذا الأسلوب الجديد الذي يتطور إلى الصنعة والتصنيع على يد، والبه ترمى وأبي تمام ومن والاهما، ثم عاد فاتخذ طريق العربية المثلى من الرصانة والقوة والسلاسة والوضوح، على يد المتنبي ومن أحبوا منه وطريقته، وسرف تكشف دراسة الشعر والشعراء في هذا الكتاب عن كل هذا.

## السمات الفنية التي أثمرتها الحياة الثقافية والعقلية لدى الشعراء العباسيين

كانت للحياة العقلية الجديدة وللثقافات المترجمة التي انتقلت إلى اللغة العربية، ولتأثيرات الحياة الاجتماعية في النفوس والأذواق والعقول وللمدارس العلمية والمذاهب الفكرية وللنحل والعقائد آثارها البعيدة المدى في الأدب العباسي، وسوف نعرض بإيجاز شديد لأبرز هذه السمات مشفوعة بتأديجها الشعرية التي تدل عليها.

(١) شاع في هذا العصر الجدل في مباحث علم الكلام وقد تأثر الشعراء بهذا اللون من الجدل والتفكير الفلسفي، وكان بشار بن برد يعدّ من أصحاب الكلام، وكان كثير الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس جماعة المعتزلة وكان من أهم المشكلات التي يثور حولها الجدل فكرة الحجر والاختيار وكان واصل يرفض فكرة الحجر، ولكن بشارًا مضى في بعض أشعاره يعارض

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨ تحقيق عبد الستار فراج ط دار المعارف.

«واصلًا» ويصور أن الإنسان مسير لا يغير وفي ذلك يقول :

طبعت على ما في غير مُخَيَّرِ      هوائى ولو خيَّرت كنتُ المهذبا  
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أُرِدْ      ويقصُرُ عِلْمِي أن أنال المُعَيَّبا  
فأصرفُ عن قصدى وعِلْمِي مقصُرُ      وأمسى وما أعقبْتُ إلا التعجبا

ومن ذلك أيضًا أن النِّظام كان ينكر فكرة الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ، وتجادل في ذلك طويلا مع المعتزلة وقد ألم أبو نواس بأساس هذه الفكرة في أبياتٍ غزله يقول فيها للمحبوب :

يسا عاقدَ القلب عني      هلأ تذكرت حلأ  
تركتُ مني قليلا      من القليل أقلأ  
يكأذ لا يتجزأ      أقل في اللفظ من «لا»

ويقول أبو نواس أيضًا في شخص كان يبغضه وقد استخدم في قوله الإشارة إلى فكرة الكمون :

كُمْنُ الشَّنَانِ فِيهِ لَنَا      ككُمونِ النارِ في حَجَرِهِ

وكان النظام يرى أن الله سبحانه وتعالى خلق الموجودات دفعة واحدة ثم جعل بعضها كامناً في بعض على نحو ما أكنم في آدم أبناءه من بعده.

وكان أبو نواس أيضًا يؤمن بفكرة المرجئة في أن الله من حقه أن يترك وعيده للعاصي الذي ارتكب جرماً وأن يغمره بعفوه، وكان المعتزلة يرون وجوب صدق الوعد والوعيد لأن ذلك لازم لصفة العدل، ورد عليهم أبو نواس متابعاً فكر النظام وهو شيخ المرجئة، يقول أبو نواس :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفةً      حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء  
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً      فإن حَظركه بالدين إزراء

وتجلى في كلام الشعراء كثير من مصطلحات المنطق وغيره من العلوم، مما يدل على أن ثقافة العصر المتنوعة قد أثرت تأثيراً مباشراً في المادة الفكرية

للشعراء وقد انعكس ذلك في كثير من أشعارهم  
وكان أبو تمام نفسه يتعمق مذهب الاعتزال وعلم الكلام ومن خلالها المنطق  
والفلسفة، يقول في أحد ممدوحيه:

صاغهم ذو الجلال من جوهر المعجِّدِ      لم وصاغ الأنام من عَرَضِهِ  
ويعتمد في وصفه الخمر على مذهب الجهمية في أسماء الله وصفاته، حيث  
كان جهم يمتنع عن تسميته تعالى باسم حتى لا يثبت شيء عليه من التشبيه  
بال مخلوقات، وقد استمد أبو تمام شيئاً من هذه الفكرة في نعت الخمر في البيت  
التالي:

جهمية الأوصافِ إلا أنهم      قد لقبوها جوهر الأشياءِ  
«فالخمر في رأيه رقت حتى كادت لا تبين، بل حتى كادت لا تسمى  
- على مذهب جهم - باسم، ولكنها لعظم شأنها لُقبت جوهر الأشياء»<sup>(١)</sup>.

### (ب) توليد المعاني نتيجة التأمل العقلي:

نظراً لشيوع الثقافات ذات الطابع الفكري والفلسفي ونظراً لاتساع الحياة  
الفكرية والثقافية ونتيجة لإقبال الشعراء على فهم وعنايتهم بتجويدهم والابتكار  
فيه، نلاحظ شيوع سمة التوليد للمعاني نتيجة التأمل العقلي وتنوع الثقافة والرغبة  
في الابتكار، فأبو تمام يصور جمال صواحيبه في ساعة الوداع فيقول:

ولمت فأنظلم كلُّ شيءٍ دونها      وأنارَ منها كلُّ شيءٍ مظلم  
ويقول في أخرى:

بيضاءُ تسرى في الظلام فيكتسى      نورا وتسرُّبُ في الضياء فيظلمُ  
وأبو تمام مشهور بأنه كان يملك القدرة على التوليد حتى في موقف  
التحدى، كما في قصته مع الفيلسوف يعقوب الكندي ويأتي ذكرها في ترجمة  
أبي تمام.

(١) انظر المعصر العباسي الأول د. شوق ضيف من ١٥٣ - ١٥٨.

ومن التوليدات الجيدة قول ابن الرومي :

وإذا امرؤٌ مدح امرأً لنواله      وأطال فيه فقد أطال هجاءه  
لو لم يُقلِّدْ فيه بُعدَ المُستقى      عند الورد لَمَّا أطال رشاءه  
ومن تلك التوليدات التي تدل على صنعة وتدبّر عقلي طويل قول اسحق  
بن إبراهيم الموصلي :

أخافُ عليها العينَ من طول وصلها      فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر  
وما كان هجراني لها عن ملامةٍ      ولكنني أملتُ عاقبة الصبر  
أنكرُ في قلبي بأى عقوبة      أعاقبه فيكم لترضوا فما أدرى  
سوى هجركم والهجرُ فيه دمازه      فعاقبته فيكم من الهجر بالهجر  
فكنتُ كمن خاف الندى أن يبله      فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

### (ج) اتساع الخيال وإبداع التصوير<sup>(١)</sup> :

نتيجة اتساع الثقافة وتبعاً للقدرة على التأمل الفكري والنفسي الذي ساعدهم على توليد المعاني وتركيب الصور من عناصر غير مُتداولة، وتبعاً لمواهبهم المتنوعة فإن اتساع الخيال كان سمة واضحة في الشعر العباسي، وقد ساعد ذلك على بناء صور فنية جديدة مبتكرة ومن أمثلة ذلك ما هو شائع ومعروف لدى ابن الرومي ومن أشهر ذلك وصفه للأحدب في قوله :

قَصُرَتْ أخادعه وغاص قَدَّالُه      فكأنه مترص أن يُصفعا  
وكأنما صُفَعَتْ قفاه مرةً      وأحسن ثانيةً لها فتجمعا

ومن أجمل ذلك قوله في وصف المغنيات يحملن آلات الغناء :

وقيان كأنها أمهاتُ      عاطفاتُ على بنينا حوانِ  
مُطَفَّلَاتُ وما حملنَ جنينا      مرضيعاتُ ولسنَ ذاتَ لبانِ  
مُلَقَّهَاتُ أطفالهنَّ نُدياً      ناهداتُ كأحسن الرُّمانِ

(١) انظر الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي عمود مصطفى ص ٢٨ ج ٢ ط ٢ .

مُفْعَمَاتٍ كَأَنَّهَا حَافِلَاتٌ      وَهِيَ صِفْرٌ مِنْ دِرَّةِ الْأَلْبَانِ  
كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَتَى      بَيْنَ عُودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانِ  
أَمُّ دَهْرَهَا تُرْجَمُ عَنْهُ      وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التُّرْجَمَانِ

وقول أبي اسحق إبراهيم بن موسى :

غَزَّتْنِي بِجِيْشٍ مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهَيْهَا      فَعَمِي لَهَا طَرْفِي لِيَدْفَعَ عَنِ قَلْبِي  
فَلَمَّا التَّقَى الْجِيْشَانِ أَقْبَلَ طَرْفُهَا      يَرِيدُ اغْتِصَابَ الْقَلْبِ قَسْرًا عَلَى الْحَرْبِ  
وَلَمَّا تَجَارَخْنَا بِأَسْيَافِ الْحِظَانِ      جَعَلْتُ فَوَادِي فِي يَدَيْهَا عَلَى الْعُضْبِ  
وَنَادَيْتُ مِنْ وَقَعِ الْأَسْنَةِ وَالْقَنَا      عَلَى كَبْدِي يَا صَاحِ مَالِي وَاللُّغْبِ  
فَصَرْتُ صَرِيْعًا لِلْهَوَى وَسَطَ عَسْكَرِ      قَتِيلِ عَيُونِ الْغَنَائِيَاتِ بِلَا ذَنْبِ

#### (د) المبالغة الشديدة والتحويل الزائد<sup>(١)</sup> :

وهذه السمة في الحق من طبع الفرس، ونظام حياتهم الاجتماعية وقد ظهر ذلك في العصر العباسي في الشعر والكتابة، ومن آثاره في الحياة الاجتماعية والسياسية المبالغة في تجميل الألقاب والنعموت والصفات، ومن أمثلة تلك المبالغات قول منصور التميمي في الرشيد قولاً خرج به إلى المبالغة المرذونة :

خَلِيفَةَ اللَّهِ إِنْ الْجُودَ أَوْدِيَةً      أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ  
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِنِي الْعَبَّاسِ مَعْتَصِمًا      فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخُمْسِ يَنْتَفِعُ  
إِنْ أَخْلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ مَخَايِلُهُ      أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَسِعُ

وقول محمد بن وهيب يملح المعتصم :

ثَلَاثَةٌ تَشْرُقُ السُّدْيَا بِبَهْجَتِهَا      شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ  
فَالشَّمْسُ تَحْكِيهِ فِي الْإِشْرَاقِ طَالِعَةً      إِذَا تَقَطَّعَ عَنْ إِدْرَاكِهَا النَّظْرُ  
وَالْبَدْرُ يَحْكِيهِ فِي الظُّلْمَاءِ مُنْبَلِجًا      إِذَا اسْتَنَارَتْ لِيَالِيهِ بِهِ الْغَرَرُ

إلى أن يقول :

فالمخلوق جسم له رأس يدبره وأنت جارحتاه السمع والبصر  
ومن المبالغة الزائدة عن حد المعقول والمقبول قول أبي نواس يمدح الرشيد :  
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تُخلق

(هـ) الإكثار من الحكمة وتعهد استقصائها :

وهذه الظاهرة تتصل اتصالاً قوياً بالعمق الثقافي من جهة وبظاهرة توليد المعاني وتأملها وإدمان التفكير فيها وقدرة الشاعر على تأمل الحياة وفهم تجاربها من جهة أخرى، وهي من هذا المنطلق معين خصب للشاعر المقتدر على تلق وحيا والارتفاع إلى مستواها الخالد في تاريخ الكلمة الفنية، وقد عظمت الحكمة لدى كثير من شعراء العصر العباسي منذ بشار حتى بلغت قمتها لدى أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء، ومعلوم أن الحكمة ظاهرة قديمة في الشعر العربي. ولكنها تحولت في العصر العباسي إلى آفاق جديدة تناسب عمق الثقافة وتنوع التجارب ودقة التأمل.

ومما قاله بشار في ذلك :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن  
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة  
وما خير كف أمسك الغل أختها  
وخل الهونى للضعيف ولا تكن

برأى نصيح أو نصيحة حازم  
فإن الخوافي قوة للقوادم  
وما خير سيف لم يؤيد بقائه  
نشوماً فإن الحر ليس بنائم

وقول المتنبي :

والهمم يخترم الجسم مخافة  
ذو العقل يشقى في النعم بعقله  
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى  
والظلم من شيم النفوس فإن تعبد

ويشيب ناصية الغلام ويبرم  
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم  
حتى يُراق على جوانبه الدم  
ذا عفة فلعله لا يظلم

عن جهله وخطاب من لا يفهم  
وأود منه لمن يود الأرقم  
ومن الصداقه ما يضّر ويؤلم

ومن البلية عدل من لا يرعوى  
والذل يُظهر في النليل مودة  
ومن العداوة ما ينالك نفعه

وقوله :

ذاتُ خدر تمنت الموتُ بعللاً  
ملّ حياةً وإنما الشيبُ ملاً  
فإذا ولياً عن المرء ولي

وإذا لم تجد من الناس كفتنا  
وإذا الشيخ قال أفّ لسا  
آله العيش صحةً وشباب

ويقول أبو العلاء المعري :

بأى كناس في المشارب أطربوا  
فتاركها عمداً إلى الله أقرب

لعل أناساً في الهارب خوّفوا  
إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها

ويقول أيضاً :

وأى دين لآبى الحق إن وجبا  
للخير وهو يقود الجحفل اللجبا

الدين انصافك الأقوام كلهم  
والمرء يعيه قود النفس مُصْحَبَة

ويقول أيضاً :

فلم يره يؤسى تعدُّ ولا نعى  
من الريق عذباً لا يحس له طعماً  
حديث أت من كاذب يُطلُّ الرُعماً

إذا ألف الشيء استهان به الفتى  
كلإنفاقه من عمره ومساغيه  
وما ارتاب في لُتيا الرتّى وكأنه

## ملاحم التجديد

### في الموضوعات والأغراض في الشعر العباسي

يمكن القول بأن الشعر في العصر العباسي انتقل إلى طور جديد بعد تطور الحياة إلى مسارها الجديد في هذا العصر، ويمكن تحديد هذا التطور في خطين رئيسين :

أولهما : ظهور أغراض واتجاهات جديدة في الشعر منها مثلاً :

الشعر الفلسفي الذي يحاول فيه الشاعر النظر التحليلي في الحياة من حوله. وهي فلسفة أساسها التأمل وليس النظرية، والاجتهاد الجزئ وليس التحليل الكلي، ولا نعى بذلك شعر الحكمة بل شعر التجارب الإنسانية والخوض في تفسيرها وتحليلها وسيد هذا الاتجاه وقتة أبو العلاء المعري حيث ارتفع على يديه إلى آفاق ستظل تحظى بالاحترام والخلود.

وكذلك الشعر الصوفي الذي يتجة بالغزل الإنسان - وبعبارة أدق بالحب الإنسان - إلى وظيفة روحية عليا تربط الإنسان بل الوجود بخالقه الأعلى، وهو شعر لا يقف عند حدود التأمل الجزئ بل يتعداه إلى نظرة فلسفية شاملة، وهو يطرق موضوعات ويقدم أفكاراً غاية في الرفة والكمال منها صفات الله وكمالاته، وعلاقة العبد بسيدته وأشواقه على طريق الحب الإلهي.. وقد انتهى دور هذا الشعر في أرق كمالاته الروحية وغموضه الفني في شعر ابن الفارض وأضرابه.

وظهر كذلك الشعر التعليمي الذي عمد إليه كبار أساتذة الفنون والعلوم تسهيلاً على الطلاب في حفظ مفردات المادة العلمية، وظهر أيضاً شعر القصص والحكايات، والشعر الهزلي والتهكمي.

ونشأ شعر الزهد الذي جعله أبو العتاهية باباً واسعاً للتأمل والموعظة ثم

اتسع وقام بدوره في التسرية عن المحرومين والمظلومين. كما أصبحت الخسريات ذات كيان مستقل واتسع القول فيها وتجددت ألوانه حتى غدا كأنه غرض جديد في الشعر العربي نتيجة التطور الهائل الذي طرأ عليه، وفي تيار اللهب والمجون توارى الغزل العذرى العفيف وارتفعت في الساحة أجراس الغزل الحسى ووصل درجة بعيدة من القبح والشنعة في بعض نماذجه نتيجة لاتساع حياة اللهب والمجون.

وقد اقتضى هذا التطور في الأغراض والموضوعات استقلال الفكرة الواحدة بقصيدة كاملة. وكانت هذه السمة الفنية في بناء القصيدة باباً جيداً لتخليد قيمة الفن الشعري.

**ثانيهما:** تطور يتعلق بالأغراض الكبرى في الشعر القديم كالغزل والملح. وطبيعى أن يهتم بالقول فيها الشاعر العباسى، لكن التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية أثرت تأثيرات مختلفة على العناصر الفنية التى يبني منها الشاعر هذه الأغراض المألوفة، ومن ثم نجد أنواعاً من التطور داخل هذه الأغراض يمكن أن نستوضحها في إجمال في غرض الملح الذى كان يحتل رقعة واسعة في الشعر العباسى لأنه شعر الخلفاء والأمراء وباب الرزق الواسع للشعراء ومدرجة الطموح إلى مراكز الدولة وصلاتها.

نعم كان الملح غرضاً بيتياً في الشعر الجاهلى. وكان يحمل الشاعر على القول فيه تأثره بموقف نبيل للممدوح فيديج خواطره ومشاعره وأفكاره شعراً تسير به الركبان، تكررنا وتخليداً لهذه المحمداً أو ذلك الصنيع، ولم يكن الشاعر أول الأمر يتكسب بالشعر، ولم تكن مدائحه لاهثة وراء الرغد والعطايا، حتى ظهر النابغة وقيل صلات الغساساة والمناذرة، وكسب من الشعر كسباً عظيماً حتى قيل إن أكله وشربه كانا في صحاف الذهب والفضة، وكذلك تكسب زهير بالشعر مع هرم بن سنان وقد انقطع زهير لمدحه، حتى بلغ من سنان «هرم» أنه أقسم ألا (يكلمه) زهير إلا أعطاه: عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يُعطى له، وابتدع عبارة جميلة يجيى بها «هرم

بن سنان» وفي الوقت ذاته مجلُّهُ من قسَمِه في العطاء، فكان إذا رآه في سلا قال: «عَمُوا صباحًا غير هرم وخيركم استنيت»<sup>(١)</sup>.

وعلى يد الأعشى أصبح الشعر متجرًّا يتجر فيه ويطوف به البلدان حتى قيل إنه مدح ملك العجم وأجزل له العطاء<sup>(٢)</sup>.

ثم عمت البلوى في الاستجداء بالشعر وأصبح الخالج الشاعر يطلب العطاء أمرًا مقررًا، بل أصبح الشعر بالنسبة لكثير من الشعراء بابًا للرزق، وقد عرِّ أبو تمام بذلك إذ يقول له قائل:

أنت بين اثنتين تبرز لنا      س لكليتها بوجه مُذال  
لست تفك طالبًا لوصال      من حبيب أو راغبًا في نوال  
أتى ماءً لحرٍّ وجهك يبق      بين دُلِّ الهوى ودُلِّ السؤال

ومحاول أن نتبين الآن ما طرأ على المدح من تطور أو تجديد:

لقد كان الشاعر الجاهلي وكذلك الإسلامي يوضح القيمة الحقيقية التي تقدِّرها الجماعة للفعل النبيل الذي قام به المدحوح، وكان يكشف الشاعر عن الفضيلة التي قام أو تحلى بها المدحوح، كالكرم أو دفع الديات أو قيادة الجيش أو الدفاع عن قومه أو سعة عطائه، أو شجاعته وبلائه، أو ما إلى ذلك من الفضائل التي كانت سائدة في حياتهم، والشاعر في ذلك كان يجب المعاني والقيم التي تقدِّرها الجماعة وتتطلع إليها وتمسك بها.

فلما كان الشعر العباسي تفنن الشعراء في تصوير المثل الأعلى للقيم التي يمدحون بها كالساحة والكرم والحلم والحزم والشجاعة والباس. وغيرها، وقد استطاعوا بقولهم الخصبة وتوليداتهم الذهنية ومبالغاتهم وقدرتهم على التخيل والتصوير الفني تجسيد هذه المعاني، وكانوا يرسمون صورة مثالية للصفات التي يتحلى بها المدحوح حتى لو كان المدحوح دون ذلك، فهم يرسمون المثل الأعلى في

(١) انظر كتاب الشعر الجاهلي ص ٢١٩-٢٢٠ ط الشباب القاهرة.

(٢) أسس النقد الأدبي د. أحمد بدوي ص ١٨٠ ط ٣ سنة ١٩٦٣.

قصيدة المدح وكأنما يوجهون نظر المدوح إلى وجوب التمسك بهذه الصورة لمثل التي رسموها له، ويمكن القول بأن الجديد في هذه النقطة هو تناول الشاعر لصفة واحدة أو صفات متعددة من الفضائل يظل يلح عليها ويرسم مثلها الأعلى ويعقد صلة بين هذا المثل الأعلى والمدوح، وهكذا أصبح المثل الأعلى للفضائل هو غاية الشعر في التصوير والتعبير. فإذا كانت تلك الفضائل أو بعضها على النحو الذي رسمه الشاعر قائمة في المدوح كانت المذحة صادقة قوية، وإن كان الأمر على خلاف ذلك كان توجه المدح إلى المثل الأعلى في ذاته، وكان الشاعر بذلك يرفع أمام الخليفة الشعارات والأمال التي تنطبقها الرعية فيه.

والشعراء في تصويرهم لهذه المعاني كانوا يلحون عليها ويستقصون أصرافها بتوليداتهم العقلية وثقافتهم الواسعة، وتنافسهم في الوصول إلى مستوى شعري يضمن للشاعر الفوز والتميز بين زملائه الذين تناولوا هذا المعنى قبله أو معه أو الذين سيتناولونه بعده، ولذلك شاع في النقد العربي أن يتسع النقد المعنى الواحد لدى السابقين واللاحقين ليفاضلوا بين الشعراء.

وكان الشعراء يضيفون إلى الصورة المثالية التي يرسمونها للقيم الحديث عن المناسبات الخاصة التي أدت إلى مدح المدوح، حيث يسجلون انتصاراته في الحرب والسياسة والأعمال الكبرى التي تنسب إليه، كما في مدح أبي تمام للمتعمص في فتح عمورية وما أكثر الأحداث والمناسبات التي سجلها الشاعر العباسي في مدائحه، وبذلك يعد الشعر وثيقة أو مصدرًا تاريخيًا يعين المؤرخ على كثير من فهم الأحداث والكشف عن ملابسها ومناسباتها المتعددة، وصفحات البطولة وأخبار المعارك إلى المدى الذي اعتنى معه الشعراء بالحديث عن تفاصيل المعارك الحربية.

وقد ازداد إقبال الخلفاء والولاة على شعر المدح وأجزلوا العطاء عليه لأنه كان السبيل إلى تخليد مآثرهم، وتسجيل تاريخهم وإعلاء شأنهم بين أندادهم السابقين واللاحقين، ولهذا السبب نفسه جرى الشعراء وراء مبالغات متعددة.

ووقفوا إلى أساليب فنية متنوعة وإلى ابتكار المعاني والتفنن في توليدها والبراعة في تصويرها، كل ذلك بسبب التنافس تارة وبسبب رغبة الخلفاء في الإجابة والتفوق في تخليد مآثرهم على أحسن وجه تارة أخرى، يضاف إلى ذلك دور الملكات الفنية العالية التي ظهرت بين شعراء هذا العصر وتركت آثارها متميزة في تاريخنا الأدبي كأبي تمام والمنتبي.

وحتى نتبين طبيعة التطور الفني الذي طرأ على قصيدة المدح في العصر العباسي نحاول أن نضع بعض الظواهر الفنية في قصيدة المدح موضع التحليل والمقارنة :

معلوم أن قصيدة المدح في العصر الجاهلي وما بعده كانت تعتمد في افتتاحها على مقدمة النسيب، ونظرًا لأن الشاعر العباسي كان علماء اللغة ونقده الشعر يذكرونه دائمًا بالشعر العربي القديم مثلًا أعلى في طرائق إبداعه، فإنه كان يتجه إلى هذا التقليد الفني الموروث، ومن جهة أخرى فإن الشاعر العباسي استجابة لحياته الاجتماعية والثقافية بعناصرها الحضارية الجديدة قد حوّر وغير في عناصر مقدمة النسيب، وعلى يديه طرأت عليها سمات فنية جديدة. فالمقدمة الطللية لم تعد السبب المباشر لسكب الدموع حرة على المنازل الدائرة والذكريات المولّية الضائعة بل نجد في العصر العباسي شاعرًا مثل بشار يقف على الأطلال ليجعلها منبرًا للوعظ يعلن من فوقه آراءه في الحياة والناس، فالذي يصيب المنازل من التدمير والتغيير يصيب الكائنات كلها، يقول بشار في أرجوزته البائية التي يمدح فيها عقبة بن سلم :

يا دارَ بين الفُرْعِ والجَنَابِ	عفا عليها عُقْبُ الأَعْقَابِ
قد ذهبَ والعيشُ للذَّهَابِ	لما عرَفْنَاها على الخِرَابِ
ناديتُ هل أسمعُ من جَوَابِ	وما بدارِ الحَيِّ مِنْ كَرَّابِ
إلا مَطَايَا المِرْجَلِ الصَّخَابِ	ومَلْعَبِ الأَحْيَابِ والأَحْبَابِ
فانقلبتُ والدهرُ ذو انقِلَابِ	ما أقربَ العَامِرِ من خِرَابِ

فهو لا يكتفي بتحديد موقع الدار، ولا بمنادتها ولا برصد خرابها والوحشة

الجائحة عليها، بل يوضح لنا أن الذى أفناها هو تعاقب الأيام والليالى، وأن هذا البلى الذى أصابها إنما هو سنة الحياة التى لا تتبدل.

وبدلاً من أن نستمع إلى مقدمة قيس بن ذريح صاحب لبي الذى يقول فيها :

عفا سرفاً من أهله فسراوعُ فجنباً أريك فالتلاع الدوافعُ  
فغيقَةُ فالأخفاف أخفافٌ ظبية بها من لُبِّي نَحْرَفُ ومفريع

إذا بنا نجد الشاعر العباسى أحياناً قد بلغ فى الوقوف على الأطلال حدّاً بعيداً من السهولة ورشاقة الأسلوب، وقصر الوزن وخفته، فهذا أشجع السلمى يقول فى مقدمة إحدى قصائده التى يمدح فيها جعفر بن يحيى :

قف بأطلالٍ لسعدى دراساتٍ موحشاتٍ  
وبها وحش فلاة كالظباء الأنات  
كُنْ أسباب المنأيا وعمل الشهوات

وكان العرب قديماً يدعو بالسقيا لمنازل الأحباب، ويصف ما نبت بها من خضرة وعشب. أما الشاعر العباسى فقد توسع فى ذلك إلى حد بعيد حتى أصبحت هذه السعة ظاهرة عامة، ولعل مرجع توسع الشاعر العباسى فى وصف المطر والخضرة بديار المحبوبة يمثل طبيعة الفرق بين بيئة الشاعر البدوى القديم، وبيئة الشاعر الحضرى الذى عرف الحدائق والبساتين، وبرك المياه والنفورات داخل القصور، وفى بيوت السراة. وسوف نقف فى دراستنا للشعر، على جوانب شتى تنصل بمجهودهم فى تصوير هذه المقدمة لاسياً أبو نواس وأبو تمام، فإذا كان الأول صاحب دعوة للخروج على مضمون المقدمة التقليدية، فإن الثانى صاحب ابتكارات فنية عجيبة داخل إطار هذه المقدمة التقليدية ولعل فى رؤية هذين الخطين ما يضيف كثيراً من الجدة والتأصيل لدراسة هذه الظواهر الفنية التى ظلت تفرض نفسها إلى عصرنا الحديث.